الفصل السابع

المبادئ والقيم المنهجية

أهداف الفصل

1. توضيح المقصود بالمبادئ والقيم في مجال الحديث عن المنهجية الإسلامية، وإبراز العلاقة التبادلية والتكاملية بين المبادئ والقيم.
2. تعرُّف مستويات المبادئ المنهجية.
3. تحديد مبادئ المنهجية الإسلامية في كل من التفكير والبحث والسلوك.
4. تحديد المبادئ المشتقة من القيم الإسلامية العليا: التوحيد والتزكية والعمران.
5. بيان أهمية قيمة التوحيد وتمثلاتها في الفكر والحياة.
6. بيان أهمية التزكية وشمولها لفكر الفرد وسلوكه وبناء المجتمع وأنظمته وتعاملاته.
7. توضيح القيمة المعيارية لمفهوم العمران القرآني الذي تُقوَّم به الجهود والإنجازات العمرانية للفرد والجماعة والأمة.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

سوف نجتهد في هذا الفصل في بيان مفهومي المبدأ والقيمة في الإطار الفكري الإسلامي بوجه عام، وفي إطار المنهجية الإسلامية بوجه خاص. ومع أنَّ لكل من المفهومين دلالته المحددة، فإنَّهما يختلطان إلى حد كبير في تحديد الدلالات والمعاني، وفي الاستعمال اللغوي. فثمّة تداخل كبير بين المفهومين إلى حد أنهما يردان في كثير من الكتابات في مواقع الترادف، أو التبادل، أو تعريف أحد المصطلحين بالمصطلح الآخر. فتجد الكاتب يكتب مثلاً، "المبادئ والقيم التي تتأسس عليها حركة..."، أو: "إن مبدأ التوحيد يقتضي... وتتجلَّى قيمة التوحيد في..." أو: "والمقصود بالمبادئ التأسيسية هنا هو مجموعة القيم،... المستمدة من المصدر الأساسي للإسلام..." ولا عجب في ذلك، فكل من المبادئ والقيم يعدُّ ضوابط ومعايير للحكم على قوة الأفكار وصحتها، وعلى سلامة السلوك والفعل الذي تقتضيه هذه الأفكار.

ولنأخذ مثالاً يوضح ما نراه من اعتماد مبدأ القيم العليا التي تتصف عناصره الثلاثة: التوحيد والتزكية والعمران، بالتكامل والشمول، لتوضيح إمكانية اشتقاق الكثير من المبادئ الفرعية من كل قيمة من هذه القيم، بصورة تجعل من السهل ملاحظة أن منظومة القيم العليا تعدُّ مبادئ كلية وحاكمة للتكامل المعرفي:

أ. قيمة التوحيد: مبدأ الخلق، ومبدأ تكامل الدنيا والآخرة، ومبدأ تكامل الوحي والعالَم، ومبدأ تكامل العقل والحس، ومعادلة التكامل المعرفي...

ب. قيمة التزكية: مبدأ تكامل الجسد والعقل والروح، ومبدأ تكامل الوجود الإنساني بين الفرد والمجتمع، ومبدأ تكامل العلم والعمل...

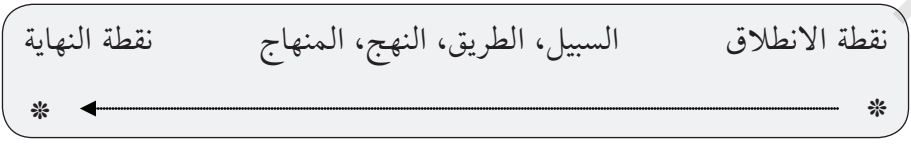

ت. قيمة العمران: مبدأ تكامل متطلبات الحياة الاجتماعية: الزراعة والصناعة والتجارة والاتصال؛ ومبدأ تكامل ميادين المعرفة: علوم الوحي، العلوم الإنسانية، العلوم الطبيعية، والعلوم التقانية، مبدأ تكامل الانتفاع والاستمتاع...

وسوف يتبين لنا في الفقرات الآتية كيف أنَّ كلاً من هذه العناصر الثلاثة في منظومة القيم العليا، أساس للعديد من القيم الفرعية، وكيف أن كلاً من هذه العناصر يتجلّى في الكثير من صور الحياة الإسلامية وممارساتها العملية. وقد يكون من المناسب التنويه بأنّنا توسعنا قليلاً في الحديث عن هذه القيم، للتأكيد على المعالجة القيمية فيما أوردناه من حديث عن هذه القيم الثلاثة، وليس المعالجة الاعتقادية "الكلامية" في حالة التوحيد، أو العرفانية "الصوفية" في حالة التزكية، أو المدنية "الحضارية" في حالة العمران. ولا نعني بذلك التهوين من هذه المعالجات في المقام المناسب لكل منها. فهي كما أكدّنا أكثر من مرّة قيم عليا، لها تجلياتها في جوانب الحياة كلّها.

ما العلاقة بين مبادئ الإسلام ومبادئ المنهجية؟

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴾ [محمد: 19]، ﴿ ... قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل: 64]...

وماذا يقابل المبادئ؟

النهايات التي نودُّ الوصول إليها، الأهداف بعد تحققها، الصورة التي تظهر فيها التطبيقات والممارسات، الرأي أو القرار النهائي في مسألة من المسائل...

وما الأفكار التي لا تعد مبادئ؟

أركان صلاة الجمعة، نصيب الزوجة من ميراث زوجها المتوفى عنها بعد الدخول، عندما لا يكون لها أولاد منه...

obeikan.com

أولاً: مقدمات في مبادئ المنهجية

1. المبادئ مصطلح ومفهوم

مصطلح "مبادئ" ومفردها "مبدأ" في سياق الحديث عن المنهجية الإسلامية، مصطلح حديث، لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يشير إلى معناه الاصطلاحي المستعمل اليوم. وما ورد في القرآن الكريم من الفعل "بدأ"، ومشتقاته: يبدأ، بدأكم، بدأنا، بدءوكم، يبدئ، وكلها في صيغة الفعل، إنما تتحدث عن الشروع في الفعل في أول عهده، و"مبتدئه". وفي معظم الآيات يأتي بعد الفعل (بدأ، يبدأ، يبدئ) الفعلُ المقابل للبدء وهو "الإعادة": ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم: 11]، ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ ﴾ [السجدة: 7]. وقد ورد لفظ ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ ﴾ [هود: 27] بمعنى أول الرأي، الذي يتكون بسرعة، دون عمق نظر ولا نضج فكر. وفي السنة النبوية وردت الأحاديث بالمعنى نفسه "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء."[1] ومن أسماء الله الحسنى التي وردت في الحديث: "المبدئ المعيد" وذلك في المعنى نفسه الذي ورد في آيات القرآن الكريم. ولكن مصطلح مبتدأ ورد في عناوين بعض أبواب الحديث في الصحيحين وغيرهما، باب "مبتدأ البعث"، باب "مبتدأ فرض الصلوات الخمس."

ما المقصود بمبادئ المنهجية الإسلامية؟

أما "المبادئ" في الاستعمال الاصطلاحي، فإنها تأتي في سياقات متعددة، فهي: معلومات، ومعتقدات، ومسلمات، وافتراضات، ومنطلقات، وثوابت، وعلاقات بين المفاهيم التي تحدد المقولات والاستنتاجات التي أمكن اختبارها والبرهنة عليها، وهي قيم حاكمة ترشِّد السلوك، ومعايير لضبطه وتوجيهه، وهي قواعد وأركان يتأسس عليها بنيان فكري، واعتقاد ديني، وسلوك عملي، إلخ.

ويستعمل مصطلح مبادئ كذلك في مستويات مختلفة من العموم

(1) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، كتاب الإيمان، 1998م، الحديث رقم 150، ص83.

والخصوص، فهي مثلاً: مبادئ للدين، ومبادئ للعلم، ومبادئ للتفكير، ومبادئ للبحث، ومبادئ للسلوك، إلخ. فمبادئ الإسلام هي أركانه الخمسة المعروفة، ومبادئ الإيمان هي أركانه الستة المعروفة. ومبادئ الكيمياء هي الموضوعات الأساسية لهذا العلم؛ أي إنَّ كتاباً يحمل عنوان مبادئ علم الكيمياء، هو في الغالب مقدمة في علم الكيمياء، أو المستوى الأول الذي يدخل به الدارسون إلى هذا العلم، من خلال هذه المبادئ، وقد يواصلون بعد ذلك دراسة العلم في مستويات أعلى وأكثر عمقاً وتفصيلاً، بكتب كتب متخصصة في كل فرع من فروع هذا العلم، أو كل موضوع من موضوعاته.

وقد تكون المبادئ، في كتاب معين، مجموعة الافتراضات أو المسلّمات التي يبني المؤلف كتابه على أساسها. فمن جملة المبادئ الأساسية التي أسهمت في تشكيل كتاب عن "مناهج البحث" الإيمان العميق بأنَّ البحث هو عمل فكري ومهني يتصف بالجدوى والعائد الكبير، والاقتناع الراسخ أن تطوير المهارات البحثية أمر حاسم في أيَّ مهنة، والحكم بأنَّ عملية تعلم طرق البحث لا يلزم أن تكون أمراً مهيباً أو أمراً مملاً.

وقد يكون المبدأ هو الأساس العلمي (النظرية العلمية، القانون العلمي...) الذي يعمل عليه جهاز معين (مبدأ عمل الجهاز). فهذا المبدأ هو القانون أو القاعدة العلمية التي يعمل الجهاز على أساسها، فمبدأ عمل المفتاح اللاسلكي (ريموت كنترول) هو الاتصال الكهربائي بين المفتاح والجهاز عن طريق الأشعة تحت الحمراء دون توصيلات سلكية، ويعمل المفتاح في هذه الحالة مع جهاز محدد (تلفزيون مثلاً)، ولا بد فيه من توجيه الأشعة الصادرة من المفتاح إلى عين محددة في الجهاز تستقبل الأشعة وتقوم بفتح التيار الكهرباي أو إغلاقه أو تغيير المحطة أو تغيير مستوى الصوت... إلخ. ومبدأ عمل ظاهرة طبيعية معينة، هو الأساس العلمي (الحقائق والنظريات والقوانين...) لفهم كيفية حدوث ظاهرة معينة مثل الرعد، أو الشفق أو الكسوف... إلخ.

والمبدأ قاعدة للسلوك أو الفعل، أو عقيدة أساسية، مثلاً: "مبدأ أخلاقي" فهو صفة التزام؛ فالرجل الذي يلتزم بموقف في السلوك أو الرأي دون تغيير، يؤمن بمبدأ معين، ويسمى رجل مبدأ؛ فهو رجل يلتزم بسلوك معين، على أساس المبدأ، وهو يقبل أو يرفض فكرة معينة على أساس مبدئي، ولذلك فإن الموضوع ليس قابلاً للمراجعة.

ومن حيث المبدأ، يمكن قبول فكرة أو رفضها بناءً على الرأي الأولي، فهو قرار مؤقت، مع بقاء الحاجة إلى النظر إلى الفكرة بالتفصيلات اللازمة لاتخاذ القرار النهائي.

والمبدأ في اللغة مصدر من بَدَأ، وهو نقطة أو حالة بداية، تفترض وجود نهاية، وبين البداية والنهاية طريق (أو منهج) فثمَّة نقطةٌ يتمُّ البدء أو الانطلاق منها بالحركة، أو حالة يتم البدء بها للتغير. والحركة تنطلق متجهةً إلى مقصد أو غاية حتى تنتهي إليها، وبين المبدأ والمقصد طريق أو منهاج، يجب الالتزام به، والاستمرار فيه، والاستقامة عليه.

وحسب تعريفنا للمنهجية في أنها "عِلْمٌ" يبحث في مناهج التفكير ومناهج البحث ومناهج السلوك، فلا غرابة أن يكون لهذا العلم "علم المنهجية" مبادئ على شاكلة مبادئ أيّ علم آخر. ويكون معنى مبادئ المنهجية في هذه الحالة: الموضوعات التي تمثل أساسيات العلم: أي حقائقه الكبرى ومفاهيمه الرئيسة، ونشأته وتطوره، ونظرياته، ومجالات عمله وتطبيقاته. وعليه فإنَّ العناوين الرئيسة لجلسات ودورات المنهجية التي ينظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي تكون تعبيراً عن مبادئ علم المنهجية: مفهوم المنهجية والمفاهيم ذات العلاقة، تطوُّر مفهوم المنهجية، ومصادر المنهجية وأدواتها ومدارس المنهجية، وتطبيقات المنهجية في مجالات العلوم، إلخ.

2. موقع المبادئ ومستوياتها في قضايا المنهجية

إنّ الإصلاح الفكري (بجانبيه إصلاح الفكر، وإسلامية المعرفة) شرط لازم للنهوض الحضاري للأمة الإسلامية، وهذا الإصلاح يلزمه تحديد المنهجية

الإسلامية التي يمكنها أن تحقق الأهداف المنشودة منه. وسلوك المنهجية الإسلامية يحتاج إلى الانطلاق من مبادئ أساسية، ومن دون هذه المبادئ تختلط الرؤية ويصيبها الغبش، وتتشتت الأفكار وتصيبها الفوضى، وتتشوه شخصية الأمة وتفقد الدافعية.

ونقصد بالمبادئ في سياق الحديث عن المنهجية الإسلامية: المنطلقات التي تبدأ منها المنهجية الإسلامية حركتها في التفكير والبحث والسلوك، وتحتكم إليها في استقامتها للوصول إلى غاياتها، وتتصف بها وتتمثلها في تعبيراتها وصياغاتها.

لكنّ المنهجية التي نتحدث عنها ليست شيئاً من الأشياء ولا صفة من الصفات، وإنما هي فعل يقوم به الإنسان، وجهد يبذله، وعمل يؤديه، لذلك فلا بدّ لهذا الفعل من أن يبدأ بتصور لما سوف ينتهي إليه، وأن ينطلق من موقع الإنسان الاعتقادي ويلتزم بالضوابط والمعايير والقيم، ويستقيم في خط التوجه.

وتقع هذه المبادئ في عدد من المستويات، نشير في هذا المقام إلى مستويين: مستوى كلي عام، ومستوى جزئي خاص؛ ففي المستوى الكلي، ترتبط هذه المبادئ بأركان الإسلام وأركان الإيمان، والقيم العليا، وفي المستوى الجزئي تتحدد مبادئ المنهجية في كونها ضوابط ومعايير وخصائص للتفكير، أو ضوابط ومعايير وخصائص للعمل البحثي الذي يستهدف اكتساب المعرفة واختبارها وتوظيفها، أو معايير لضبط السلوك وتوجيهه. ومبادئ المنهجية في المستوى الأول معروفة، أما مبادئ المنهجية الخاصة، فيمكن التمثيل عليها على الوجه الآتي:

ج. مبادئ منهجية التفكير: التفكير الكلِّيُّ، السنني، والسببي، والمقاصدي، والاستراتيجي، والعملي... إلخ.

د. مبادئ منهجية البحث: التوثيق (الأمانة، الاستقامة، الموضوعية...) والدليل (عملي، عقلي ونقلي) "إن كنت ناقلاً فالصحة وإن كنت مجتهداً فالدليل."

هـ. مبادئ منهجية السلوك: النيّة والاتباع والإبداع:

- النية: (حركة القلب والضمير والتوجه النفسي نحو الخالق).
- والاتباع: (سلوك سبيل مطروق مجرب ينتهي إلى القصد لتوفير الجهد، والاستقامة على نهج النبوة، والحركة الجماعية لتحقيق الانتماء).
- والإبداع: ابتغاء الحكمة في النمو، والتجاوز، والارتقاء، والإحسان، والإتقان.

5. مبادئ المنهجية الإسلامية

سوف نكتفي بذكر ما نجتهد في عدّه من مبادئ المنهجية الإسلامية، دون تفصيل في أي منها؛ لأنَّ المقصود بكل منها قد أصبح واضحاً إلى حد ما فيما عرضناه في الفصول السابقة، ولأنَّ ثمة كتابات متعددة يمكن اعتمادها لبيان تفاصيلها، ولا سيما كتابات كل من طه جابر العلواني، وعبد الحميد أبو سليمان، ونادية مصطفى، وسيف الدين عبد الفتاح.

أ. مراعاة الاتساق الداخلي والانسجام بين الرؤية الكونية أو رؤية العالم الإسلامية، وما ينبثق عنها من عناصر النظام المعرفي، وما يتضمنه هذا النظام من عناصر المنهجية.

ب. اعتماد المرجعية القرآنية ضمن مفهوم الوحدة البنائية للقرآن الكريم، والسنة النبوية بوصفها بياناً لنصوص القرآن وتطبيقاً لتوجيهاته.

ج. الجمع بين القراءتين: أي القراءة التوحيدية والتكاملية التي تقود إلى معادلة التكامل المعرفي.

د. إعمال منظومة القيم المنهجية العليا: التوحيد والتزكية والعمران، بوصف هذه القيم الثلاثة أسساً حاكمة لسائر المبادئ والقيم في المستويات النظرية والعملية.

هـ. تشغيل إسلامية المعرفة: التي تشترط التمكن والاستيعاب والتجاوز: عن طريق السعي نحو الأفضل والأحسن والأكثر إتقاناً، والترقي في منازل الكمال البشري.

ثانياً: مقدمات في القيم المنهجية:

سوف يكون الحديث عن المنظومة الثلاثية لقيم المنهجية الإسلامية العليا المشار إليها، بشيء من التفصيل؛ أولاً: بوصفها مبدأً عاماً من مبادئ المنهجية الإسلامية؛ وثانياً: لتأكيد هذه القيم هي المعايير والضوابط الحاكمة لسائر المبادئ الأخرى للمنهجية، سواءً في مستوياتها الفكرية النظرية والاعتقادية العامة، أو في مستوياتها العملية الإجرائية للتفكير والبحث والسلوك؛ وثالثاً: لتوسيع دائرة اشتغال يسمى أخلاقيات المنهج العلمي في البحث، وربطها بغايات المنهجية الإسلامية العامة ووسائلها.

1. التوحيد: الأساسُ الأوَّل في ثلاثيَّة القيم الحاكمة

اجتهد شيخنا العلواني في رؤيته للهدى القرآني والمبادئ الكبرى، التي يقود إليها هذا الهدى، في صياغة ما سمّاه "منظومة القيم الحاكمة"، فحدَّد عناصرَها في ثلاثة مفاهيم قيمية كبرى؛ هي: التوحيد، والتزكية، والعمران.[2] ورأى أنَّ هذه القيم الثلاث تكوِّن معاً مرجعيةً مقاصدية لبيان غاية الحقِّ من الخلق، ومنظومةً معيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسة والفرعية في دين الله. ولكن هذه المنظومة القيمية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها أو مفروضاً عليها.

ولعلَّ من السهولة واليسر استخلاص الفائدة المترتبة على هذا الجمع بين عناصر هذه المنظومة، وأهميته في بيان الارتباط العميق بين هذه العناصر: التوحيد والتزكية والعمران، فتوحيد الله عزَّ وجلَّ حقيقة مطلقة يقود إليها التفكُّر والتأمُّل والبداهة العقلية، ويريح الإنسان من حالات الحيرة والقلق والضلال، التي ينتهي إليها أيُّ تصوُّر آخر غير التوحيد. والتزكية ارتقاءٌ بالنفس الإنسانية وسموٌّ بها، وتطهيرٌ للمجتمع الإنساني من ألوان الفساد والانحراف، وتطهيرٌ للمال وتنميتُه وتدويرُه بين الناس، فيتحقَّق بذلك من صفاء النفس وسلامة الصدر، وتعزيز مؤشرات المسؤولية والتكافل الاجتماعي، ما يبني مجتمعاً موحداً متماسكاً في

(2) العلواني، طه جابر. **التوحيد والتزكية والعمران**، بيروت: دار الهادي، 2003م.

بنيته وأنظمته. أمَّا العمران فهو سعيٌ بشري لتوظيف طاقات الإنسان في بناء حياة عامرة بالخير، تُحقِّق مقاصد الخلافة في الأرض واستعمارها، واستخراج طاقاتها واستعمالها في تيسير سبل الحياة، وتطوير الحضارة البشرية وترشيدها. وهكذا تستكمل هذه المنظومة الثلاثية عناصر رؤية العالَم في التصوُّر الإسلامي فيما يتعلَّق بالله والإنسان والكون.

وليس ثمّة شك في أنَّ العقيدة الإسلامية تجعل التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتَها من ذاتها، وغيرُها من الحقائق إنّما يصدر عنها. والكون كلُّه خاضع بالفطرة لمتقضيات التوحيد، فإذا أراد الإنسان أن ينسجم مع فطرة الكون، فلا بدَّ من أن يتزكى، ويتوجَّه إلى الله وحده بالعبادة، فهو سبحانه "إلهُ الناس" (توحيد العبودية)، مثلما هو جلّ شأنه "ربُّ الناس" (توحيد الربوبية) و"مَلِكُ الناس" (توحيد الحاكمية). والتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، وَفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها. ومن ثَمَّ فإنّ التزكية هدفُ العُمران ووسيلتُه، وهي تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري.

إنَّ تكامل عناصر المنظومة الثلاثية وترابطها، لا يجعلها بالضرورة في مستوى واحد من القيمة والأهمية؛ إذ يبقى التوحيد رأسَ الأمر كلَّه في الإسلام، فبه يتقوَّم جهد الإنسان في الدنيا، وجزاءه في الآخرة. هذا التوحيد كان دائماً أساسَ الدين عند الله، ورسالةَ الله إلى الأنبياء والرسل أجمعين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]. فالنطق بالشهادتين "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" هو باب الدخول في الإسلام، للبدء في بناء أركانه الخمسة، والتحقق به عقيدة وعبادة ونظام حياة، وبمضمون الشهادتين تتحدد سائر أركان الإيمان الستة، والترقي بها لإطلاق طاقات الإنسان الفكرية والوجدانية، وتحريرها من قيد المادة، لتزكية النفس الإنسانية والسموِّ بها في آفاق التوازن بين المادة والروح، ومن سجن الدنيا لتنطلق في فضاءات الدنيا والآخرة، ومن أوهام الخرافة إلى يقين العلم. وعند تحقق مقتضيات أركان الإيمان تنعقد أخوة المؤمنين في بناء أمة واحدة، تسهم في ترشيد سعي الإنسان في تحقيق العمران والخلافة في الأرض.

ولا تقف دلالات التوحيد عند تحقق مقتضيات الإسلام والإيمان بل تتعداهما إلى مرتبة الإحسان، حيث يكون انطلاق العقل والقلب والجوارح في مراتب التزكية وفي أبواب الخير، للتطهُّر من شبهات الشرك في الاعتقاد أو السلوك.

وكنا في مناسبة أخرى[3] قد عالجنا موضوع التوحيد كما عرضته النصوص المرجعية: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتتبعنا صور المعالجة المتعددة التي تناولت موضوع التوحيد عبر تاريخ الأمة المسلمة. وسوف نقصر الحديث في هذا المقام على واحد من الكتب التي تستحق -في نظرنا- التنويه إلى أهميته، التي تؤكد قيمة التوحيد فيما يتركه من آثار في النفس البشرية والحياة الاجتماعية والواقع الإنساني في أبعاده المعنوية والمادية. ويعد الكتاب عملاً مميّزاً لرائد من روّاد مدرسة إسلامية المعرفة هو المرحوم إسماعيل راجي الفاروقي (توفي 1986م) وكتابه "مفهوم التوحيد وآثاره في الفكر والحياة".[4]

ونفرد هذا الكتاب القيّم تحديداً بقدر من التفصيل، لما تميّز به الكتاب في نظرته إلى التوحيد بوصفه القيمة الكبرى في دين الإسلام، ومصدر كل القيم الأخرى في الدين، ثم في عرضه لتجليات قيمة التوحيد في أنظمة الحياة كلها. ويمكن النظر إلى هذا الكتاب بوصفه إحدى المحاولات المعاصرة الجادة التي أخذت على عاتقها مهمة تجديد علم الكلام، وإعادة تفعيله، وربطه بحركة التاريخ، وبالأشواق الحضارية المشروعة للمسلمين في العصر الحديث، دون التنازل عن المنهجية العلمية الرصينة، المطلوبة في مثل هذه الدراسات. ويكشف الكتاب بصورة متميزة عن منهجية التكامل المعرفي، التي مارسها المؤلف، ليحكم الربط بين المرجعية الإسلامية لهذه المنهجية، وتمثلاتها في التفكير والبحث العلمي والممارسة الحضارية للفرد المسلم والأمة المسلمة.

(3) ملكاوي، فتحي حسن. **عالم القيم في الرؤية المنهجية الإسلامية**، تحت الطبع.

(4) Faruqi, Ismail R. *Al-Tawhid: Its implications for Thought and Life*. Herndon. IIIT. Fifth printing, 2000.

انطلق الفاروقي في كتابه من واقع الأمة المسلمة المشهود، سعياً إلى النهوض بها إلى مستقبل منشود. وعالج موضوع التوحيد بوصفه قيمة حاكمة لمجالات حياة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم. وهدف الكتاب هو تقديم رؤية للوجود تعين الشباب المسلم على السير في طريق الإصلاح الحقيقي، وتحليل مفاهيم الإسلام لتكون معياراً لبرامج الإصلاح. فالتوحيد هو جوهر الإسلام وكنهه، ومنطلق الإصلاح ومضمونه. ولذلك فإنّ جميع فصول الكتاب الثلاثة عشر، تتعلق بالتوحيد، فالتوحيد جوهر الرسالات السماوية، وماهية الإسلام وكنهه، وهو مبدأ التاريخ، وهو مبدأ الغيب، ومبدأ الأخلاقيات، ومبدأ النظام الاجتماعي، ومبدأ العائلة، ومبدأ النظام السياسي، ومبدأ النظام الاقتصادي، ومبدأ النظام العالمي، ومبدأ الخصائص الجمالية. وميزة الكتاب أنه يؤكد في كل فصل من فصوله محورية التوحيد، وكونه معياراً قيمياً لمعالجة موضوع الفصل.

يُبيِّن المؤلف تكاملَ الرؤية التوحيدية وجمعَها بين الأبعاد الحضارية: الفلسفية والعملية. وتمتزجُ ملاحظتُه لقضية الوحدة والتكامل بين فروع المعرفة بقدر واضح من التخفُّف من الأحمال التي عرفها التراث الإسلامي باسم الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، وينصرف جهدُه في هذا الشأن إلى التحريض على إصلاح الفكر الإسلامي والواقع الإسلامي المعاصر.

ويوضح الفاروقي كيف أنَّ قيمة التوحيد هي مصدر القيم الأخرى في جميع أنظمة الحياة البشرية، وفيما يأتي توضيح لتجليات التوحيد في عدد من هذه الأنظمة.

أ. تجليات التوحيد في النظام الاجتماعي: الأسرة والأمة [5]

تشتمل تعاليم الإسلام على ما يختص بمناحي الحياة كلّها، لأن الدين في تعريف الإسلام هو صناعة الحياة وتحريك التاريخ في الزمان والمكان. ومهمة الخلافة التي أراد الله للإنسان أن يتولاها تختص في جزئها الأكبر بإقامة الحياة الاجتماعية وتنظيم المعاملات فيها وفق أحكام الله، وهذه لا تقتصر على شؤون

(5) Ibid., Chapters 7, 8 and 9, p. 85–139.

الأسره وإنما تتناول أحكام التعامل المالي والاقتصادي وشؤون الدوله والإدارة الحكومية وأحكام القضاء وقوانين تحقيق العدل، وكلها أحكام تتعلق بالواقع الاجتماعي. أما قضايا العبادات والأخلاق الفردية فلا تشكل إلا الجزء اليسير من تشريعات الإسلام، فضلاً عن أنّ كثيراً من أحكام العبادات هي اجتماعيه بطبيعتها مثل الحج والزكاة، وبعضها اجتماعية في تأثيرها مثل الصلاة والصوم.

إن الهدي الأخلاقي الديني الذي جاء به الإسلام يستهدف صياغة الأمانة التي يحملها الإنسان بوصفها قيمة أخلاقيه لحياة الإنسان في هذا العالم، ولا يستطيع الإنسان القيام بهذه الأمانة إلا بوجود نظام اجتماعي. والقيمة الأخلاقيه هي روح العلاقات في هذا النظام، فمن هذه العلاقات مثلاً التعاون والتكافل في توفير الحاجات الأساسيه بوساطة البيع والشراء، وهنا يأتي دور الأمانة والصدق والوفاء في التعامل بين الناس، فالمجتمع هو شرط لا بد منه لوجود هذه القيم الأخلاقية، وتتطور التمثلات العلميه للقيم من مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، من أجل ضبط سلوك الناس في المجتمع، تبعاً لروح تلك القيم ومقاصدها. وهذا يعبر عن العلاقة الجدليه الوجوديه بين جوهر القيمة من جهة، وأشكال تحققها في الواقع من جهة أخرى.

ولا شك في أن النظام الاجتماعي الإسلامي الذي يقوم على التوحيد يرى في الأسرة وحدة بناء المجتمع، ويرى أهمية تعزيز روح العلاقات الأسرية ومتانتها. وفي هذا يختلف النظام الاجتماعي الإسلامي عن أيّ نظام آخر. فقد أدت النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأسرة إلى إضعاف الروابط والعلاقات الأسرية، وأدت الروح الفردانية في الغرب إلى انفراط عقد الأسرة وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار. وأسهمت النظريات الأنثروبولوجية التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات إلى غسل أدمغة الناس بعدم وجود فوراق مهمة، وإلى إلغاء الدور المكرم للأسرة. وبذلك أصبحت الحضارة الإنسانية مهددة بالسقوط، لأن الحضارة والأسرة حقيقتان مرتبطتان.

ومما يلفت الانتباه أنَّ ميدان الأسرة في القرآن الكريم قد تم تنظيمه بقدر كبير من الأحكام والتشريعات التفصيلية في الزواج والطلاق والرضاع والإرث، في حين اكتفى القرآن الكريم في سائر الميادين الأخرى بمبادئ عامة وقليل من الأحكام التفصيلية.

ولا تزال الأسرة الإسلامية محافظة على بعض خصائصها، بسبب اعتمادها على الطبيعة الفطرية للأسرة، وبسبب ارتباطها بأحكام الشريعة، المنبثقة عن عقيدة التوحيد. ذلك أنّ الغاية من خلق الإنسان هي تحقيق الجانب الأخلاقي من الإرادة البشرية عبر الفاعل الإنساني. ويتم هذا التحقّق عبر أربعة مستويات: الذات الفردية، والأسرة، والقبيلة أو القوم، والأمة. ولا شك في أنَّ المستويين الأول والثاني هما بدهيان طبيعيان بحكم الفكرة والطبيعة البشرية، والمستوى الثالث يجد قيمته في المستوى الرابع، فلا قيمة حقيقية مستقلة له. فإذا كانت العلاقة القبلية والقومية تحصر علاقات الإنسان بالآخرين على أساس الدم واللون واللغة، فإن ذلك يهدر كرامة الإنسان، ويولد روح التفوق والتمايز ومن ثم يثير النزاعات والحروب.

أمّا الأمّة القائمة على أساس عقيدة التوحيد، فإنها تقوم على الانسجام والتلاؤم مع الفطرة، وما تتطلبه من علاقات المودة والرحمة والتكامل في المسؤوليات. والوحدة الأساسية لبناء هذه العلاقات هي الأسرة التي تتكون أساساً من زواج الرجل والمرأة وما يبنيه هذا الزواج من علاقات المصاهرة والنسب، وما ينتج عنه من الأبناء والأحفاد، وما تقيمه من مفاهيم العمومة والخؤولة، وما تنشئه من مسؤوليات تتضمنها عبارات قرآنية قيّمة، مثل "أولو الأرحام"، و"ذوو القربى". فهذه أحكام شرعية لتنظيم العلاقات الاجتماعية الفطرية، الثابتة عقلاً ومنطقاً، فلا بد من أن تكون نافذة نتيجة للإيمان بكلمة التوحيد. ودون اعتماد الأسرة في إطارها التشريعي، فإن تجليات مبدأ التوحيد لن تتحقق في الواقع الاجتماعي البشري.

والأسرة المسلمة ذات الطبيعة الممتدة الواسعة، لا تعتمد على الاستقلال المادي للرجل والمرأة، للزوج والزوجة، في إقامة الأسرة، وإنما تعتمد التعاون والتكافل في توفير متطلبات الزواج في سن مبكرة، ويعيش صغار الأسرة مع كبارها، وتعيش في البيئة المنزلية ثلاثة أجيال على الأقل، فيكون التثاقف وتشرب الأعراف والتقاليد والتربية على القيم، ويتم تبادل المودة والرحمة وتعميق ألوان العطف والحب والاحترام، وتتحقق في جو هذه الأسرة صور من الحياة الطبيعية، بما فيها من فرح وحزن، وضحك وبكاء، وجد ولعب، وتبادل في التضحية، وتسود الحياة نظرة متفائلة تتطلع إلى المستقبل. وكل ذلك ظواهر من بناء الصحة النفسية اللازمة للإنسان.

أمَّا الأسرة النووية فإنَّ اختيارها يقوم على النظرة المادية إلى الحياة والعالم، ويحاول فيها الزوجان الهروب من مسؤوليات اجتماعية فطرية، لكنهما يتحملان في واقع الأمر مسؤوليات أكبر تملأ حياتهما ضنكاً ورهقاً، فضلاً عن خلو الحياة من متطلبات النضج النفسي والمشاعر الإنسانية الفطرية، وتحقيق مظاهر الصحة النفسية.

وإذا كان الإسلام يعتمد الأسرة وحدةَ بناءٍ للأمة، ويضع مفهوما محدداً للأسرة، فإنَّه يضع مفهوماً محدداً للأمة كذلك، فالأمَّة مصطلح إسلامي متميز، ويشير إلى حقيقة ترتبط برؤية الإسلام إلى العالم، ويختلف عن مصطلح المجتمع أو الجماعة بدلالاتها اللغوية والاصطلاحيه المتداوله. وكذلك يصعب التعبير عن مفهوم الأمَّة بغير اللغة العربية، فهو ليس الشعب، ولا الدولة، ولا القوم. الأمَّة في المفهوم الإسلامي غير مرتبط بالمكان والمحددات الجغرافية، فكل أفراد البشر إمَّا أعضاءٌ منتمون إلى أمة الإسلام أو مدعوُّون للانتماء إليها.

إنَّ وحدة الأمة الإسلامية وحدة دينية وأخلاقية وليست وحدة بيولوجية عِرقية أو لغوية أو سياسية. وهذا ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يسمي يهود المدينة "أمة" رغم انتمائهم لمجتمع المدينة واشتراكهم معه في المحيط الجغرافي واللساني والسياسي والحضاري الذي ينتمي إليه المسلمون، فالهوية

الدينية هي التي تحدد مفهوم الأمة. ومع ذلك فإنَّ وجود الوحدة السياسية والجغرافية والعِرقية واللغوية يدعم الوحدة الدينية للأمة ويقويها، فالأقربون أولى بالمعروف، لكن هذه الوحدات ليست هي الأساس في تكوين الأمة وتحديد هويتها، فهي خصائص قائمة بالضرورة؛ لأنَّها قد تكون خارجة عن الإرادة، أما الانتماء إلى الأمة بالمعنى الديني فيكون عن وعي، ويتحقق باختيار ذاتي إرادي، لذلك فإنّه لا يقبل الإكراه في الدين.

ب. تجليات التوحيد في النظام السياسي(6)

التوحيد قيمة مركزية في الإسلام، وهي مصدر القيم الأخرى، وتتجلى مضامينها في أنظمة الفكر والحياة جميعها، من النظام السياسي إلى النسق الجمالي والفني. ففي المجال السياسي تتجلى قيمة التوحيد أساساً في وحدة الأمة التي تعدُّ شرطاً أساسياً لتحقيق مقاصد الخلافة السياسية الإسلامية. والمقصود هنا هو أنَّ الأمة هي الوحدة التكوينية الكبرى في النظام السياسي الإسلامي. وإذا كان التوحيد هو صفة الله الواحد سبحانه فإنَّ ذلك يقتضي وحدة الأمة، المنتسبة إلى دين الله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]

والأمة مفهوم إسلامي فريد يتصف بالعالمية التي تتجاوز العِرق واللون واللغة والأرض، وتتجاوز السلطة السياسية، وبذلك تُمكن المسلمَ الذي ينتمي إلى عقيدة التوحيد أن يقوم بواجباته تجاه دينه، ويتمتع بحقوقه الشرعية في أي مكان على وجه الأرض يسمح له بذلك، وله أن يتقيد بالقوانين المدنية للمجتمع الذي يعيش فيه، ما دامت تسمح له بأداء واجباته ولا تتناقض مع حياته الإسلامية، ومن ثم يكون بسلوكه وخلقه أنموذجا جاذباً إلى دينه، يشجع الآخرين على الدخول فيه، ومن ثمَّ الانتماء الى الأمة الإسلامية. وإذا لم يتمكن من ممارسة حياته الإسلامية فأمامَه اختيار الهجرة إلى بلد آخر يمكِّنُه من ذلك: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 100]

(6) Ibid., Chapter 10, p. 141 – 155 and Chapter 12, p. 185 – 193

إنَّ انشغال الصحابة والتابعين من المسلمين بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتفاصيل سيرته وسيرة أصحابه كان تعبيراً عن طبيعة الإسلام الذي آمنوا به، وما أنتجه تحقيق القيم الإسلامية من حركة في التاريخ، فهو في المقام الأول دين عملي واقعي تطبيقي، وليست فكرة طوباوية، فقد كانت هذه التفاصيل تنقلهم من الفهم النظري التجريدي إلى مجالات تَحقُّقِه في واقع العمل، فهذه التفاصيل العملية هي تمثلات لقيم الدين، ومن ثم يكون لها تأثير تربوي فعال يقرب هذه القيم إلى الفهم والأدراك.

وتجتمع في المفهوم الإسلامي للأمة الواحدة ثلاث خصائص:

الأولى أنَّ الأمة واحدة في رؤيتها للعالم، فهي رؤية متطابقة في الفكر والوعي، وتتكون هذه الرؤية الإسلامية للعالم من معرفة القيم المكونة للإرادة الالهية، وما يترتب عليها من حركة في التاريخ، ومن ارتباط هذه القيم وحركتها في الحاضر القائم والمستقبل المنشود، ومن انفتاح دلالات هذه القيم وتجسدها التاريخي مع المستجدات، التي تجعل الإنسان المسلم يستوعب هذه القيم بصورة متجددة لإدراك الواقع وقضاياه، والاجتهاد في تنزيل هذه القيم على الواقع ومستجداته، الأمر الذي يعطي للقيم الإسلامية حيوية وفاعلية متجددة.

والخاصية الثانية أنَّ الأمة واحدة في تجاربها ومواجهاتها للوقائع والأحداث، وفي توجهها للعمل لترجمة القيم التي تحدد ما يجب أن يكون، إلى ممارسة عملية على مستوى الأفراد والجماعات والقيادات، وبذلك يتحقق اجتماع الأمة في أهدافها المنشودة ويتحقق لها نظامها العملي الذي يوجِّهُ نشاطها باتجاه هذه الأهداف.

والخاصية الثالثة أنَّ الأمة واحدة في توجهها العملي وإبداعها المادي وإنجازها الحضاري الدنيوي؛ فذلك كله من متطلبات استخلاف الإنسان، ومن ثم الأمة الإسلامية، في الأرض لينتفع بخيراتها وفق السنن الكونية، ويستخرج خزائنَها، ويوظف طاقاتها، فيتحقق للإنسان ما قُدِّر له من الاستمتاع المشروع في هذه الدنيا، وتطوير رغد العيش والأمن النفسي والاجتماعي، والحيلولة دون انتشار الجهل والفقر والمرض، أو التخفيف من آثارها على الأقل.

هذه الخصائص الثلاث تعبر عن إجماع الأمة الإسلامية في هذه الحالات فهو إجماع في الرؤية، وإجماع في الإرادة، وإجماع في العمل.

إن قيمة التوحيد المتمثلة في شهادة "لا الله الا الله " تعني فيما تعنيه أنّ الهداية الإلهيه صالحة للناس جميعاً، وأنَّ الأمَّة هي قاعدة التجمع الإنساني، وأنَّ مفهوم الأمة مفهوم ديني إسلامي، يختلف عن المفاهيم الدينية غير الإسلامية، فهو يعطي الحق لأتباع الأديان الأخرى أن يتجمعوا على أساس دينهم ويحث على ذلك، ويستوعبهم في مجتمع المسلمين، مع الاحتفاظ بكياناتهم الدينية الخاصة بهم، ويبقى دستور المجتمع المسلم يحمل رسالة مفتوحة إلى العالم كله، للدخول في الإسلام أو الدخول في أمان الإسلام، مع التفاعل البنَّاء، والتعاون المثمر في حماية الحقوق وتوفير الرعاية والتمتع بالسلام. وهكذا فإنَّ هذه الخاصية العالمية لقيمة التوحيد، والنظام المفتوح على العالم هو دعوة مفتوحة إلى السلام، ولا تضمن بالضرورة دخول الناس في الإسلام، وإنَّما تضمن إقامة علاقات سلام، تتحقق فيها حرية الإنسان وكرامته في التفاهم والتجاور والتعامل والتعاون مع مواطني المجتمع المسلم، في مجالات الاقتصاد والاجتماع والفكر والثقافة، ولكل إنسان مطلق الحرية في الاستمتاع والاختيار، فإنَّ حرمان الناس من الحرية هو انتهاك لكرامتهم الإنسانية.

حين يمتلئ العالم بالقيم تتحقق إرادة الله، وتصبح رعاية الإنسان لهذا العالم والمحافظة عليه من قبيل العبادة. إنَّ كل شيء من مخلوقات الله هو أداة لتحقيق إرادة الله المطلقة، أما الإنسان فهو مخلوق مكرم، يملك القدرة والإرادة على تحقيق إرادة الله سبحانه، فهو ليس في مأزق يعجز عن الخلاص منه، ومن ثم فليس هو في حاجة إلى منقذ أو مخلص، وكل ما يلزمه هو القيام بواجباته، وترتفع قيمته بقدر ما يحقق من إنجازات. وقيمة التوحيد تقضي كذلك أنَّ إرادة الله سبحانه هي تحقيق الخير لجميع البشر، فالعمل الأخلاقي يملك القيمة نفسها، بقطع النظر عن أعراف الناس أو ألوانهم أو أماكن وجودهم، وهذا يجعل الحياة الأخلاقية عالمية بالضرورة، وذات طبيعة مجتمعيه.

ج. تجليات التوحيد في النظام الاقتصادي[7]

يرى الفاروقي أنّ البعد القيمي المترتب على شهادة "لا إله إلا الله" هو من أهم تجليات التوحيد في الإسلام؛ الأمر الذي يعني أنَّ إرادة الله سبحانه هي القيمة النهائية، وأنَّ كل شيء آخر يستمد قيمته من هذه الإرادة. وعبادة الإنسان لله سبحانه هي التي تحقق الإرادة الإلهية، وهذا هو ما يعطي القيمة الحقيقية للزمان والمكان، لذلك فإنَّ الهدف الإلهي من خلق الكون هو بناء عالم تملؤه القيم عن طريق امتلاك الإنسان للرؤية الكونية الإلهيه لهذا العالم، والعمل الأخلاقي الصالح الذي يملأ به حياته. وقد شرع الله للإنسان أن يتمتع بهذا العالم المملوء بالقيم الأساسية التي تذكره بالله، فيرى أنَّ واجبه المحافظة على هذا العالم وتحسينه وتجميله، فكل شيء فيه يحمل قيمة كونية، فالبشر جميعاً متساوون ولا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح (التقوى). وكذلك الأشياء كلّها في هذا العالم، تسلك وفق سنن الله وقوانينه. وقيمة كل منها تكمن في تسخيرها للإنسان ليرتقي بهذا العالم إلى الصورة التي يريدها الله سبحانه.

وقد تميّز الإسلام بوصفه دين التوحيد بتأكيده العلاقة التوحيدية المتوازنة بين المادي والروحي، وهو بهذه الميزة يسعى إلى تحقيق النفع والخير للبشر جميعاً، وذلك بالحرص على العمل والانتفاع بخيرات الأرض وتوظيف طاقاتها وتوفير المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، وجمع الثروة، وإنشاء العمران، وتوفير متطلبات الحياة المادية للناس. وأيُّ تقدُّم وارتقاء روحي يلزم أن يصاحبه تحسن مادي، وإذا انعدم التوازن بينهما اختل نظام الحياة.

ويقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على مبدأين، الأول: عدم شرعية قيام فرد أو مجموعة باستغلال الآخرين، والثاني: عدم شرعية قيام أي فرد أو مجموعة بإنشاء حصار اقتصادي على الآخرين أو حجر عليهم. وقد أوضح ابن خلدون كيف أنَّ مثل هذه المبادئ هي سنن كونية واجتماعية، فالإنسان مدني بالطبع، ولا تقوم حياته إلا بالاجتماع ليتحقق التعاون والتكامل في داخل المجتمع، وبين المجتمعات البشرية، التي تتشابك مصالحها ويعتمد بعضها على بعضها

(7) Ibid., Chapter 11, p.157–183

الآخر. لذلك ألغى النبي صلى الله عليه وسلم الترتيبات التي كانت قائمة بين القبائل، ليحرر التنقل وحركة التجارة، وألغى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جميع الحدود والمراكز الجمركية، حتى أصبح انتقال الأشخاص والبضائع حراً بين أراضي الدولة الإسلامية، وأكثر من ذلك فإنَّ حركة التجارة الخارجية بين الولايات الإسلامية والدولة البيزنطية بقيت حرة حتى في حالة العداء والحرب.

وكما كان للتوحيد في الاقتصاد الإسلامي قيمتُه في وضع المبادئ العامة للاقتصاد، فقد كان للتوحيد تجلياته في أخلاقيات العمل ومبادئ الإنتاج، ومن ذلك الحث على الحد الأقصى للإنتاج؛ حتى ينتج المرء أكثر مما يستهلك، ويقدِّم من الخدمات أكثر مما يستعمل، ويعطي للعالم عند انتهاء أجله أكثر مما أخذ من الخدمات، ومن ذلك أن يكون الإنتاج الزراعي والصناعي فيما يفيد الإنسان المستهلك لهذا الإنتاج، دون إضرار بالموارد التي استخلف فيها الإنسان ليعيدها إلى صاحبها أصلح مما وجدها عليه، أو على حالتها الصالحة على الأقل؛ ومن ذلك أن تكون المنتجات أو الخدمات خالية من الغش أو الخديعة، ليس خوفاً من مراقبة مؤسسات الحسبة، وإنَّما انسجاما مع القيم النبيلة المنبثقة عن قيمة التوحيد العليا، ومع الفطرة الأصلية التي تقتضي عمل الخير، وانقياداً للإرادة الإلهية، وما يؤديه الانقياد لها من سعادة الضمير والطمع في أجر الآخرة.

وكما كان للتوحيد تجلياته في أخلاقيات الإنتاج، فكذلك شأنه في أخلاقيات الاستهلاك، فالتوحيد يعطي الإنسان المسلم مبدأ الإيجابية نحو العالم، ومن ثم يمنحه شرعية الاستهلاك، الذي يعني الوعي على القيم المادية وتلبيته الاحتياجات الأساسية في حد أقصى لا يصل إلى التبذير والإسراف. أما فائض الإنتاج فيعاد استثماره لزيادة الإنتاج وإغناء الأمة، وإنفاقه في وجوه الخير والخدمات الاجتماعية، طمعاً في مرضاة الله وإعمالاً لقيم التراحم والتكافل. وأبواب الإنفاق مفتوحة لسد الحاجات الأساسية على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع والدولة. فعلى مستوى الفرد ينفق الفرد على ذويه إنفاقا إلزامياً، ويدفع الزكاة المفروضة في وجوهها المحددة، ويتصدق تطوعاً في الوجوه الأخرى، وعند الموت يوزع الميراث ضمن نظام غاية في الدقة والعداله. وعلى مستوى

الدولة ثمة خزانة عامرة لها موارد محددة من الملكية العامة، ومن الزكاة الفائضة عن حاجة الناس، ومن حق المجتمع في أموال الأغنياء سوى الزكاة، تنفق الدولة على تقوية الأمة وحمايتها، وتنشئ المشاريع الإنتاجية الاستثمارية في الزراعة والصناعة والخدمات، وتنفق من هذه الموارد على رواتب الجند والموظفين في المصالح العامة، وتفتح الطرق وتؤسس المدارس والمشافي، إلخ.

إنَّ أخلاقيات النظام الاقتصادي في العمل والإنتاج والاستهلاك كفيلة بتحقيق السعادة للناس في حياتهم المادية والروحية، ضمن نظام قيمي يتصف بالإيجابية والمسؤولية والعدالة.

د. تجليات التوحيد في النظام الجمالي[8]

اخترع الفنان المسلم في سيره على خط التفكير التوحيدي فنَّ التزيين، وطوَّره إلى نسق (الأرابسك) في تصوير تجريدي، يتمدَّدُ بصورة لانهائية في جميع الاتجاهات، حتى انفصل عن الطبيعة المادية للأشياء، واستحال إلى حقل النظر فقط. وحتى عندما استخدم الفنان المسلم هيئات النبات أو الحيوان أو الإنسان في رسومه فإنَّه شكَّلها حتى خرجت عن طبيعتها المادية. ووظَّف تراثه اللغوي والأدبي ليصبح لوحة ممتدة من المعاني والأفكار. وأسقط قيمه الجمالية على المباني فجعل المبنى "نسقاً": في واجهته، وفي مسقطه الرأسي، وفي منظره الخارجي وفي مخطط أرضيته. وبذلك أصبح التوحيد القيمة التي تفسر أعمال الفنان المسلم الذي صهر الإسلام نظرته إلى الكون بقطع النظر من مكانه في الجغرافيا أو صفته في اللغة أو العرق.

إنَّ غياب الفنون التشخيصية في النحت والرسم والدراما في الفن الإسلامي كان تعبيراً عن قيمة التوحيد المطلقة، المتمثلة في تنزيه الإله الخالق عن صفات المخلوقين، ومن ثم تجريد التوحيد من الشرك، والتعالي الإلهي عن التجسيد الطبيعي. ذلك أنَّ التعبير عن الإله في شكل من أشكال الطبيعة، حتى لو كانت صورة الإنسان نفسه، هو تعبير سطحي ساذج، يعجز عن تصوير المتعالي الذي

(8) Ibid., Chapter 13, p. 195–215.

يستحق تمام الألوهية. وفي حين أنَّ الإدراك الإسلامي أنَّ الله سبحانه لا يمكن التعبير عنه بشكل مادي مرئي هو أعلى قيمة جمالية يمكن للإنسان أن يصل إليها؛ فلا شيء من المخلوقات المادية يمكنه أن يمثل الإله في تعاليه وكماله، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهذه قمّة الوعي بالجمال.

ويرى الفاروقي أنَّ الفنَّ في عقيدة التوحيد هو القراءة في الطبيعة لجوهر ليس طبيعياً، وإعطاء هذا الجوهر الشكل المرئي الملائم له، وهو بالضرورة افتراض أن نجد في الطبيعة ما ليس فيها، وهذا خارج عنها، ومنزَّه عنها، لا ينطق إلا على خالقها المتعالي. هذا الجوهر القبلي الذي يكون موضوعاً للتذوق والإدراك الجمالي هو قيمة الجمال التي تحرك العواطف الإنسانية، فترتقى هذه العواطف الإنسانية، متعالية عن الأشكال المادية الخالية من القيمة الحقيقية.

وقدم الفاروقي تفسيراً لطيفاً عن قيمة التعبير الجمالي في الإسلام، وهو التعبير عما لا يمكن التعبير عنه! فالتعبير الحسيّ عن عدم إمكانية التعبير عن الإله بصورة حسية أمر يذهل الفنان. وقد قام به الفنان المسلم ضمن ما سماه الفاروقي "النبوغ الفني الإسلامي" و"الاختراق الفني الإسلامي". وأعطى الفاروقي مثالاً على ذلك حين مثَّل الفنانُ المسلم النبتة أو الزهرة بعيداً عن الشكل الفردي لها، بل تصورها مكررة بلا حدود، وبذلك ألغى فرديتها وطرد الصفة الطبيعية عنها من الوعي الإنساني، فالتعبير الجمالي عن اللاتناهي واللاتعبير بواسطة تكرار الموضوع المشكل هو محاولة للوصول الى نتيجة مشابهة للشهادة (لا إله إلاّ الله) في التعبير اللفظي.

وبيَّن الفاروقي بعض جوانب العبقرية في اللغة العربية والشعر العربي، وهي الجوانب التي كانت فخر العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن الكريم ليبلُغَ بالعربية من الذروة والسمو ما صنع للعربي، ثم للمسلم بعد ذلك، قيم الجمال ومعاييره والتعبيرات النفسية الراقية عنه، في الشكل المرئي، والصوت المسموع، والمعاني الكلية العميقة. وأخيراً أوضح الفاروقي مفهومَ "النَّسق"؛ أي الأرابسك وتمثلاته في رسم الأشكال وكتابة الخط العربي بما يمثل القمة في فنِّ الوعي بالتعالي.

وفي ختام الحديث عن قيمة التوحيد يجدر تأكيد مسألتين: الأولى أنَّ علماء المسلمين لا يختلفون في أنَّ التوحيد هو أساس الإسلام، وهو الذي يعطي للحضارة الإسلامية هُوِيَّتَها، وأنَّ التوحيد في الرؤية الإسلامية هو قيمة مركزية، ومصدر للقيم الأخرى وقاعدة لمضامين هذه القيم في أنظمة الفكر والحياة جميعها، من التفكير والنظر العقلي، إلى النظام السياسي والاجتماعي الاقتصادي، إلى النسق الجمالي والتفكير العقلي، إلخ. أما المسألة الثانية، فهي أنَّ التوحيد مبدأ وقيمة وأساس لوحدة المعرفة، وقد رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أنَّ وحدة المعرفة هي أساس التكامل المعرفي في الرؤية والممارسة المنهجية الإسلامية.

2. التزكية في منظومة القيم الحاكمة

وجدنا في الفقرة السابقة أنّه لا معنى للدين الإلهي بغير توحيد الله الخالق، وتزكية الإنسان المخلوق، لتمكينه من حمل أمانة الخلافة في الكون، وعمران هذا الكون وبناء الحضارة فيه. فالإنسان المخلوق هو المخاطب بالوحي المنزل من الخالق الواحد، يؤمن بوحدانيته ويقرُّ بالعبودية له ويوظِّف طاقته العلمية والعملية في إعمار الأرض، وترقية الحياة البشرية عليها، وهو بذلك يحقق مقصد التزكية: تطهيراً، وتنمية، لنفسه وماله وعلاقاته.

والحديث عن التزكية هو حديث عن مفهوم مركزي من المفاهيم القرآنية، وهدف هذا الحديث هو الاجتهاد في تقديم رؤية معرفية لهذا المفهوم من مرجعية قرآنية.

والتزكية مصطلح ومفهوم قرآني أساسي، يتخذ موقعاً مهماً ضمن منظومة القيم القرآنية؛ فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني. إصلاح الفرد والجماعة والأمة. والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح. وأي موضوع عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلَّق بالإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية. والتزكية هدف العمران ووسيلته، فهي ليست مسألة مشاعر وخلجات وخواطر نفسيه مقصورة على مستوى

الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري.

وثمَّة عناصر مهمة لا بد من أن يتضمنها الحديث عن التزكية، منها دلالات المصطلح القرآني للتزكية، وموقع التزكية في مدارس الزهد والتصوف والجهاد، والتزكية بوصفها مكوناً أساسياً من مقاصد الوحي.

أ. معجم ألفاظ التزكية في القرآن الكريم

وردت مشتقات زَكَوَ وهو الأصل الثلاثي من لفظ التزكية تسعاً وخمسين مرة، منها: زَكَى، وزكَّى، ويُزَكِّي، وأزْكى، وزكياً، وزكاة، وازَّكى إلخ...، ومنها اثنتان وثلاثون مرة بلفظ الزكاة، أي زكاة المال على وجه التحديد بمعنى التطهير والبركة والنمو، وأربع مرات بمعنى المدح والثناء، وأربع مرات بوصف التزكية واحداً من مقاصد الوحي الأربعة، وبقية الآيات تتحدث عن مجالات مختلفة من التزكية بمعاني: التطهير والترقية والتنمية والزيادة في الحسن والنفع. ونكتفي في هذا المقام بعدد من المواقف لبيان بعض الدلالات المحددة التي يحملها لفظ التزكية في القرآن.

- تزكية الفرد الإنساني

تتحقق تزكية الفرد بدخوله في دائرة الإيمان: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: 3]، كما تتحقق في تجنُّب الدخول في جهنَّم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل: 17-18]، وعندما يكون عائد التزكية خاصًّا بالنفس ذاتها: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: 18]. وقد تكون نفس الفرد نفساً زكيَّة، عندما تتصف بالإيمان والخير والصلاح والبر: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ [الكهف: 74]، ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 19].

- قد أفلح من زكاها: أطول قسم في القرآن الكريم

ومما يلفت النظر أنَّ أطول قَسَم في القرآن الكريم يتعلق بتزكية النفس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا

﴿ ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: 1-10] ونلاحظ أنَّ الله سبحانه يُقْسم بنفسه وبالعديد من مخلوقاته من الأشياء والأحداث والظواهر، ومن المؤكد أنَّه سبحانه يقسم على شيء عظيم، يتضمنه جواب القسم. وجواب القسم في هذا السياق هو ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾. وهكذا يفلح ويفوز وينجح في بغيته مَن تَحَقَّق بالتزكية: وهي البعد عما يُغضِب اللهَ سبحانه من الآثام، والإكثار مما يُرضِي الله سبحانه من الأعمال الصالحة، وبذلك ترتفع قيمة النفس. وفي المقابل يخسر ويخيب مَنْ تَحَقَّق بالتَدْسِيَة: وهي الخصائص التي تحول بين صاحبها وبين فعل الصالحات، وحرمانها من الترقي والزيادة في الخير، والسمو بالنفس.

والنفس الإنسانية التي يتحقق لها الفلاح بالتزكية، وتُلْقَى في مهاوي الخيبة والخسران بالتدسية، هي الذات الإنسانية جسماً وعقلاً وروحاً، وهي الفرد الإنساني والجماعة الإنسانية. وللنفس الإنسانية مالٌ تمتلكه بتفويض من مالكه الأصلي، وهو الله سبحانه، ولها بيئة مكَّن الله للإنسان فيها واستخلفه عليها، ليسخِّر أشياءها وأحداثها وظواهرها في الإعمار، والبناء الحضاري. لكن محور التزكية في كل ذلك هو الوجدان الإنساني الذي يكون موضوعاً للترقية والتربية والتنمية. وهذا الوجدان هو الذي يترقى بالنفس الأمارة بالسوء، التي تنتهي إلى أنَّ الإنسان خلق هلوعاً، ويتحرك بها ومعها إلى النفس اللوامة، ولا تزال النفس تترقى في درجات التزكية لتصبح النفسَ المطمئنة، التي تستحق خطاب الله سبحانه لها: ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: 28-30].

- تزكية المشاعر النفسية والعلاقات الاجتماعية

وكثيراً ما يرد لفظ التزكية بمعنى التطهير والترقية للمشاعر النفسية وللعلاقات الاجتماعية. فعندما يحدث الطلاق بين الزوجين، فإنَّ النفوس ربما تكون مهيئة للبغضاء والشحناء وتقطع أواصر الحب والمودة، مما قد يدفع أهل الزوجة إلى عَضْلِها؛ أي منعها من العودة إلى زوجها، مع رغبة كل منهما في هذه العودة، فيخبرهم الله سبحانه أنَّ في هذه العودة خيراً لهم جميعاً، وأنّ هذه العودة أطهر

لقلوبهم من الريبة والشك، ولدوام الود والمحبة؛ فالمسألة إذن مشاعر وخواطر نفسية تُزكِّي القلوب وتحدد العلاقات والأنظمة القائمة في المجتمع وتعالج القضايا الاجتماعية.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 232]

فأزكى لكم إذن تعني: "أوفر للعِرض وأقرب للخير، فأزكى دال على النماء والوفر، وذلك أنهم كانوا يعضلوهن حَمِيَّة وحفاظاً على المروءة من لحاق ما فيه شائبة الحطيطة، فأعلمهم الله أنَّ عدم العضل أوفر للعرض، لأنَّ فيه سعياً إلى استبقاء الود بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب، فإذا كان العضل إباية للضيم، فالإذن لهن بالمراجعة حلم وعفو ورفاء للحال..."(9)

وألفاظ "أزكى لكم" و"أزكى لهم" تتكرر في سياق ما قد يحيك في النفس نتيجة بعض الممارسات، فالاعتذار عن استقبال الضيوف في المنزل احتراماً للخصوصيات، وغضُّ البصر وحفظ الفرج صيانةً للأعراض، يرافقهما تطهير الضمير والشعور وتطهير العمل والسلوك، تطهير لحياة الفرد وسريرته وواقعه، ترتفع به وبتصوراته إلى الملأ الأعلى فيكون مستشعراً مراقبة الملأ الأعلى لخلجات قلبه وسلوك جوارحه: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: 28] ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: 30]

- تزكية المال

أما لفظ الزكاة بمعنى الفريضة المعروفة في أركان الدين الخمسة، فإن محمد الطاهر ابن عاشور يقول: "لا أحسب استعمال الزكاة (زكاة المال) -بمعنى المال المبذول لوجه الله- ورد بهذا المعنى إلا في مصطلحات القرآن الكريم، ولم يرد

(9) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997م، ج2، ص428.

بهذا المعنى قبل نزول القرآن الكريم."[10] فالزكاة ركن في الدين، قسيم لشهادة التوحيد والصلاة والصيام والحج. والزكاة ركن فريد في النظام الاجتماعي العام، وظيفته تطهير النفس من الشح والاستعلاء على فتنة المال والقيام بحق الجماعة وأعضائها. والزكاة ركن مهم في النظام الاقتصادي؛ فجباية المال في الإسلام عبادة، وهي سهم معلوم من مال الفرد يرده للمجتمع، وذلك عندما يصبح المال مملوكاً للفرد الذي يملك المال، ويملك حرية التصرف فيه، لأنّه كان نتيجة للسعي والكسب. وهو سهم يرتبط بالإنتاج والعائد الزراعي والصناعي والتجاري. وترتبط الزكاة بالمواعيد والمقادير؛ فالزكاة تجب في المال الذي يزيد على مقدار محدد، في ما بقي موجوداً لدى مالكه بعد الحوْل، أو يدفع في مواعيد محددة، "وآتوا حقه يوم حصاده"، وما يدفع منه هو نسبة مئوية تكون قيمتها ربع العشر، أو نصف العشر، أو العشر، أوالخمس، بحسب أصناف المال، وطبيعة العمل المبذول في كسبه. وقد تصل إلى نسبة المال الذي يصرف في مصالح المجتمع إلى مائة في المائة في حالة مصادر الطاقة التي لا تجوز فيها الملكية الخاصة.

والزكاة وسيلة مضمونة للبركة والزيادة ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: 39] فمن أراد التجارة الرابحة التي تتضاعف فيها الأموال، فأمامه الزكاة.

والله سبحانه يَعِدُ الناس أن يكون معهم، ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ ﴾ [المائدة: 12] وما أعظمها من معية! لكن هذه المعية لا تتحقق إلا بشروط، والزكاة واحد من الشروط: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة: 12] معيَّة الله وعدٌ عظيم، تَهْدي الإنسان وتَكْفيه، ولكنها معيَّةٌ مشروطة، فهي: "... طاعة له في التصرف وفق شرطه... وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سبباً في الكساد العام، بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك، مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته،

(10) المرجع السابق، ج1، ص12.

ويفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع... كل هذا الشر تحول دونه الزكاة، ويحول دونه منهج الله في توزيع المال ودورة الاقتصاد..."[11]

والنظام الإسلامي المعاصر يقوم على الفائدة الربوية ولا يتصور أكثر الناس وجود نظام صالح يقوم على غير الأساس فصارت الزكاة إحساناً فردياً لا ينهض على أساسه نظام عصري، وبهتت صورة الزكاة في الحس المعاصر الذي لم يشهد نظام الإسلام في عالم الواقع.

ب. تزكية الأمة في مقاصد الوحي:

يظهر لفظ التزكية في القرآن الكريم في أربع آيات، تكون فيها التزكية مقصداً مباشراً من مقاصد الوحي، ولا سيما في الوحي المنزل على خاتم الأنبياء محمد صلّى الله عليه وسلّم. وهذه الآيات هي بالتحديد:

- ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: 128-129].
- ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151].
- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل: عمران 164].
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: 2].

في الآية الأولى دعاء إبراهيم عليه السلام إلى ربه سبحانه: أن يجعل من ذريته "أمة مسلمة" وأن يبعث في هذه الأمة "رسولاً منهم" ليحقق لهم أربعة مقاصد،

(11) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، مج2، ج6، ص857.

هي: يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة، ويزكيهم. وفي الآيات الثلاث الأخرى بيان مَنِّ الله وتفضُّله بالاستجابة لدعاء نبي الله إبراهيم بمجيء الأمة المسلمة وبعث نبيّها محمداً صلّى الله عليه وسلّم. ونكتفي هنا بتسجيل ملحوظتين، الملحوظة الأولى أن التزكية قد وردت في دعاء إبرهيم عليه السلام في الموقع الرابع من المقاصد، لكن التزكية في الآيات الثلاث الأخرى قد وقعت في الترتيب الثاني بعد تلاوة الآيات. والملحوظة الثانية أن التزكية كانت في حق الأمة المسلمة التي كانت دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام، وفي الأمة التي يخاطبها الله سبحانه: كما أرسلنا فيكم، وفي أمة المؤمنين، وأمة الأميين. فلم يكن مقصد التزكية إذن، ولا أيٌّ من المقاصد الثلاثة الأخرى، يتعلق بالفرد وتربية نفسه، وبناء شخصيته، وترقية وجدانه. ومع ذلك فإن خطاب التكليف في القرآن الكريم، الذي يأتي في الغالب بصيغة الجمع، يشمل كل وحدات الجمع بدءاً من الفرد فالأسرة، فالقوم... لأنّ المقصود في النهاية هو تزكية العمران البشري على هذه الأرض.

وترسم هذه الآيات الأربع منهاجاً في تربية الأمة يتكون من أربعة أركان، تتكامل فيما بينها، وتتظافر مكوناتها في بناء الأمة وفي رسم صورتها وتحديد خصائصها. الركن الأول هو تلاوة الآيات؛ ويتضمن ذلك محو الأمية، بمستوياتها المختلفة: الأمِّيَّة الهجائية، والأمية العلمية، الأمية الحضارية...، والارتفاع إلى مستوى التكريم الإلهي بتلاوة آياته والانتفاع بما فيها. والركن الثاني هو التزكية، وتشمل خصائص الطهر والبركة والتنمية، والركن الثالث هو تعليم الكتاب؛ أي تعليم ما فيه من علم وهدى. أما الركن الرابع فهو تعليم الحكمة؛ أي تعليم مادة الكتاب وثمرة تعليمه، وهي الإصابة في القول والفعل والعمل، واكتساب ملكة البصر بالأمور، ووضعها في نصابها، ووزنها بموازينها، وإدراك أسبابها وغايتها.

ت. التزكية في مدارس الزهد والتصوف والجهاد

في عهد الصحابة ظهر ميل عند بعض الصحابة لاختيار الزهد نمطاً معيناً من السلوك الاجتماعي في العلاقة مع الناس، وهو نمط تطور فيما بعد ذلك إلى شيء

من العزلة عندما تزايدت مظاهر الاحتفال بالدنيا لدى بعض الفئات، وتواترت الفتن السياسية، وانتهى الأمر إلى تحول الزهد والعزلة إلى ما عرف بالتصوف. فمضمون التصوف أساساً هو الزهد في متاع الدنيا، والإكثار من أعمال التقرب إلى الله سبحانه، ولا شك في أن ذلك من صور التزكية، والتدين الإسلامي بصورة عامة. لكن الأمر أخذ بعد ذلك صوراً من التجمع في فئات محددة يقوم أفرادها بالالتزام بتعليمات قيادة محددة، وأنماط من السلوك المحدد، في مجالات العبادة والذكر، وفي مجال العلاقات بين أفراد الجماعة، وانتهت إلى استخدام مفردات ومصطلحات خاصة، قد يكون لها في الظاهر العام دلالات معينة، ولكن لها دلالات أخرى في الباطن الخاص بالجماعة أو بشيخ الجماعة. ومثال ذلك ما عرف في بعض نظم التصوف بالمنظومة الثلاثية: (التخلي – التحلي – التجلي). فإذا كان التخلِّي يعني ضرورة الإقلاع عن الآثام، وكان التحلِّي يعني ضرورة الأخذ بالصفات الفاضلة، فإن ممارسة التخلي والتحلي إلى مستوى معين يمكن أن يدخل فيه "المريد السالك" حالةً من الشفافية الروحية، والرفعة الوجدانية، يسمونها التجلِّي، حين يستشعر السالك فيها تجلّي الحضرة الإلهية عليه....

لكن بعض ممارسات التصوف شهدت ألواناً من السلوك البدعي والألفاظ البدعية، وبقيت بعض ممارساته ضمن دائرة المألوف من الزهد والترقي في مراتب التزكية، كما عرفت بعض جماعات التصوف ألواناً من الجهاد ضد أعداء الدين، وعملت على نشر الدين في كثير من البقاع في إفريقيا وآسيا.

ومن الممكن أن نتخيل أن التزكية ألوان من الجهاد؛ جهاد للنفس: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وجهاد بالنفس: وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وجهاد بالمال؛ فالذي يؤتي ماله فإنه يتزكى.

يتبين لنا أنّ التزكية تكون للفرد ولمشاعر النفس، وخلجات القلب، وسلوك الجوارح، فقد أفلح من الناس من تزكّى، حين يتفضل الله عليه بالتزكية؛ وتكون التزكية للجماعة والأمة، فالنبي المبعوث للأمة يزكيها؛ يزكي علاقات الناس،

وأنظمة الحياة. وتكون التزكية للمال، فزكاة المال تطهير، وبركة، وتنمية، لمال الفرد ومال المجتمع. وبذلك تتكامل دلالات مفهوم التزكية لتشمل كلَّ ما يقع عليه تفكير الإنسان المسلم، وكلَّ ما يجتهد في سعيه للتعرف والبحث عنه من مجالات العلم والمعرفة، وكلَّ ما يمارسه في حياته من أجل كسبه لدنياه أو من كسبه لآخرته. وهذه هي الميادين الثلاثة للمنهجية الإسلامية: التفكير والبحث والسلوك.

3. العُمْرانُ في مَنظُومة القِيَم العُليا

إذا كان التوحيد يتعلق أساساً بالرؤية الإسلامية للإله الخالق المدبِّر، والتزكية تتعلق بالرؤية الإسلامية للإنسان المخلوق المستخلف، فإنَّ العُمران يتعلق بالرؤية الإسلامية لوظيفة الإنسان في الكون المستخلف فيه، فيكون العُمرانُ -وَفق هذه الرؤية- قيمةً معيارية تقاس بها "قيمة" الحياة في عُمُر الإنسان الفرد، أو عُمُر الجماعة أو الأمة، وقيمةً معيارية "تُقوَّم بها" الجهود والإنجازات الحضارية "العُمرانية" للفرد أو الجماعة أو الأمة.

ونؤكد مرة أخرىٰ أنَّ هذه القيم الثلاث تتَّصل ببعضها اتصالاً وثيقاً، وتشكل بمجموعها منظومة متكاملة تؤسس لمنهجية التكامل المعرفي؛ فالتوحيد هو الحقيقة الكبرىٰ في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتها من ذاتها، وعنها يصدر غيرها من الحقائق. والكون كله خاضع بالفطرة لمتقضيات التوحيد، فإذا أراد الإنسان أن ينسجم مع فطرة الكون، فلا بد أن يتزكىٰ، فيتوجه إلىٰ الله وحده بالعبادة، فهو سبحانه "إله الناس" (توحيد العبودية)، مثلما هو "رب الناس" (توحيد الربوبية) و"ملك الناس" (توحيد الحاكمية). فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، وَفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها. لذلك فإنَّ التزكية هدف العُمران ووسيلته، وهي تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري.

وتكوِّن هذه القيم الثلاث معاً مرجعية مقاصدية لبيان غاية الحق من الخلق، ومنظومة معيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسة والفرعية في دين

الله، ولكن هذه المنظومة القيمية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها أو مفروضاً عليها.

ولكننا سوف نجتهد في الحديث عن العُمران من منطق "الفقه" بقيمة العمران، وعلاقة هذه "القيمة" بالحياة التي يريدها الله للإنسان، فما الفقه إلا خطاب الله سبحانه المتعلق بأفعال الناس الذين تَوجَّه الخطاب إليهم، من حيث بيان ما يريده بهم ويندبهم إليه، أو يحرِّمُه عليهم وينزِّهُهم منه. فالعُمران إذن قيمة تحدد فقه السعي في الحياة الدنيا، ولا سيَّما سعي المجتمع، المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس بتيسير سبل الحياة لهم، ورفع الحرج والمشقّة عنهم. وكما يتجلى فقه العُمران هذا في الجوانب المادية لحياة المجتمع، من أبنية وطرق، وزراعة وصناعة، يتجلّى كذلك في الجوانب المعنوية لحياة المجتمع في استتباب الأمن، وإقامة العدل، وممارسة الشورى؛ فيكون شأن الخاصة من الأغنياء والحكام هو السهر على مصالح الناس والرحمة بهم، ويكون شأن العامة من الناس الدعاء للأغنياء والحكام بالخير ومزيد من البركة، والقوة.

ويوم فَقِهَ المسلمون "فِقْهَ العُمران" على هذا الوجه، كثر الخير فيهم، وانتشرت مؤسسات العلم بينهم، ففتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من بين أيديهم ومن تحت أرجلهم، وأبدعوا من أساليب رغد العيش، وأشاعوا من قيم الرقي والحضارة، ما جعلهم قبلة للأمم الأخرى.

ويوم غفل المسلمون عن "فِقْه العُمران" على ذلك الوجه، ضعف شأنهم، وانهار سلطانهم وخرب عمرانهم، وتسلط عليهم عدوُّهم. وقد كان من وجوه الغفلة ضعف الهمة والتخاذل عن صعود القمة، وإيثار حياة الخمول والكسل. وقد أسهمت في ذلك أحياناً، علوم غريبة وفهوم سقيمة، ليست من فقه الشريعة في شيء، روَّجت لتحقير الحياة الدنيا، وإنكار قيمتها، والإعراض عن شؤونها، والإهمال في رعاية شؤون المجتمع وحفظ مصالحه، والانتماء إلى الأمة وأداء حقوقها.

وسوف نبدأ حديثنا عن العُمران -على عادتنا في تناول المفاهيم القرآنية- باستقراء ما ورد عنه في لغة القرآن، ثم نتحدث عن العلاقة التي يبنيها القرآن الكريم بين إعمار الأرض وطبيعة الحياة عليها، والمصير بعدها. وليس من المناسب أن ينتهي الحديث عن العمران دون الإشارة إلى عبد الرحمن بن خلدون الذي استلهم الهَدْي القرآني لينشئ عِلْماً جديداً أسماه علْمَ العُمران البشري.

أ. العُمران في لغة القرآن

جاءت مادة عَمَرَ في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرَّة؛ في ثلاث منها على صيغة اسم علَم "آل عِمران" ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: 33] و"ابنة عمران" ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: 12] و"امرأة عمران" ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: 35]، وثلاث مرات منها اسماً لنُسك العُمْرة التي تتمُّ في سائر أيام العام، مما يُبقي المسجدَ الحرام عامراً بالمعتمرين ومعموراً بهم على مدار العام، على حين يأتي الحج مرة واحدة من العام.﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ ﴾ [البقرة: 196]

وجاءت في ثلاث مرات متعلقة بعُمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة: 17-19].

وجاءت مرة واحدة إشارة إلى البيت المعمور: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [الطور: 1-4] الذي قد يكون المسجد الحرام الذي يعمره الناس، أو يكون بيتاً في السماء تعمره الملائكة.

وجاءت ثلاث مرات أخرى بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض وفلاحتها وبناء المساكن وتشييد القصور والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة التنقل والبادية. وقد تحدث الله عن أقوام أقاموا في الأرض مدة طويلة وامتلكوا فيها القوة وزرعوا الأرض واستخرجوا معادنها ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: 9] ولعلَّ هؤلاء هم عاد، قوم نَبيِّ الله هود، الذين بَنوا المباني في المرتفع من الأرض وشيدوا القصور والحصون ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: 128–129] ويظنّون أنّهم مخلدون في هذه الأرض على طول الزمن.

وجاءت مرة واحدة بمعنى الحياة حين أقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: 72]

أما بقية المرات، فجميعها إشارة إلى مرور الزمن في حياة الإنسان حتى يمرَّ من عُمُره سنين، أو يطولَ عُمُره، أو يبلغَ أرذلَ العُمُر: بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ... ﴾ (الأنبياء: 44) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: 70]

ولا شك في أنَّ مرور الزمن أمر مطلوب لإنجاز الأعمال وتنفيذ المهمات وتحقيق الأهداف، فمرور الزمن عنصر في نموّ الفرد الإنساني وتحقُّقه ببعض الخصائص، واستكمال بعض المتطلبات المادية والمعنوية. ومرور الزمن عنصر في تحقق المجتمع بمستوى معين من مستويات البناء والتشكل الحضاري. ولمالك بن نبي معادلة تجمع عناصر الحضارة يتبين فيها دور كل من جهد الإنسان في جمعه للأسباب المادية، ومرور الوقت الكافي لتطوير مؤسسات الحضارة وأدواتها. لكنَّه يرى أنَّ اجتماع هذه العناصر الثلاثة: (الإنسان+ التراب+ الوقت)،[12] لا ينتج عنه بالضرورة حالة حضارية، وإنَّما يحتاج ذلك إلى قدر من

(12) ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، 1979م، ص44.

الطاقة الروحية، أو الشعلة القادرة على تفعيل هذه العناصر واستثمارها لتؤدي دورها في الإنجاز الحضاري.

وما يقابل العُمران في اللفظ القرآني هو الفساد، والقتل، وسفك الدماء، والهدم، والخراب، والتدمير، والخواء؛ إذ وردت جميع هذه الألفاظ في القرآن الكريم، في مقابل بقاء الحياة واستمراها على السنن والقوانين الجارية، وبقاء المساجد عامرة بالعابدين الذين يذكرون الله، وانتظام الحياة على هدي الله.

وعلى هذا يأتي العُمران في اللفظ القرآني بعدد من المعاني المتداخلة التي تمثل حقلاً دلالياً، تتكامل دلالاته، فهو يعني:

- **حالة الحياة:**

إذ تتحقق حياة الفرد الإنساني مع مرور الوقت وتوالي الأيام والسنين طوال عُمُره في حياته على الأرض: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء: 18]، فالفرد الإنساني يبدأ حياته في بطن أمه، ثم يخرج إلى الحياة الدنيا، ثم ينتهي عُمُره فيأتي عليه الموت وتنتهي حياته الدنيا، فيكون في بطن الأرض، حتى تقوم القيامة فيقوم إلى الحياة الأبدية الأخرى. ويبدأ الفرد الإنساني حياته الدنيا وليداً، ثم طفلاً لم يبلغ الحلم، ثم يبلغ أشدَّه، ثم يكون شيخاً كبيراً، ويصل إلى أرذل العمر. ومثلما يكون للفرد عُمُره في الحياة، يكون للأمة عُمُرها كذلك، فيمر عليها الزمن سنين وأجيالاً، محتفظة بحياتها؛ حضوراً وسلطاناً واستقراراً، في كينونة محددة، فإذا انتهى عمرها، يتوقف وجودها، فتندثر وتختفي هويتها، ويزول سلطانها، وتنتهي إلى التدمير، وتصبح بيوتُها التي كانت عامرة بأصحابها خاويةً خربة، غير مسكونة: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 51-52] والعُمُر بمرور الزمن قد لا يُعدُّ في القيمة والاعتبار حياةً، إذا لم يكن العمر عامراً بالحياة التي يريدها الله للإنسان حين يستجيب لما يدعوه الله إليه، مما تكون به الحياة الحقيقية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24] ودون استجابة الناس لدعوة الله إلى

ما تتحقق به حياتهم، بامتلاء أعمارهم بقيم الحق والخير والصلاح، لا تكون لأعمارهم قيمةٌ حقيقية، ولا تكون حياتهم في نهاية المطاف إلا ضلالاً وباطلاً.

وما يقابل معنى الحياة في أثناء عمر الإنسان على هذه الأرض، هو انتهاء الحياة بالموت، فإعمار الأرض مرتبط ارتباطاً مباشراً بالحياة في هذه الأرض بَرًّا وبحراً وجوّاً، وحفظ حياة الأحياء في أوساط الحياة المختلفة، وتجنب إنهاء الحياة بالقتل وإفساد أسباب الحياة ووسائلها. فمعنى الإحياء الوارد فيما سبق يتصل اتصالاً مباشراً بعمران الأرض وإحيائها على مستوى التوظيف السليم لكل ما استودعه الله فيها، في برِّها وبحرها وجوِّها من الأشياء والظواهر والطاقات.

- **الإقامة والسكنى والبناء في مكان محدد:**

فالعُمران هو الاستقرار في مكان محدد والتوطن فيه، والتخلي عن حياة التنقل في البادية والرحيل من مكان إلى آخر، واللجوء إلى الفلاحة والزراعة وتشييد المساكن والقصور واتخاذ المصانع لتوفير متطلبات الحياة المستقرة وتطوير أسبابها وأدواتها، ويتم هذا الاستقرار في الحياة في القرى والمدن، وبناء البيوت فيها، وهي حياة حضرية تنشأ في الحواضر من القرى والمدن المستقرة، بدلاً من الحياة البدوية المتنقلة في البادية. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيّ الله يوسف عليه السلام، أنَّ انتهاء عائلة يعقوب من حياة البدو وانتقالهم إلى المدينة كان فضلاً من الله وإحساناً: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: 100] وقد يكون في البادية بعض العمران المادي أو المعنوي، لكنه غير عمران الحاضرة، فأرض البادية قد تكون معمورة ببعض الساكنين في بعض الأحيان، ثم تكون قفراً ليس فيها ساكن يعمرها، وقد أخذ الناس هذا المعنى القرآني للعمران، فقالوا: البيت العامر، أي البيت المسكون بأهله، والمعمورة: أي الكوكب الأرضي المعمور بالجنس البشري،[13] وانتشر العمران في البلد، أي كَثُر فيه من الناس مَنْ بَنَى البيوت وسكنها.

(13) في حدود علم الإنسان أن الأرض هو الكوكب الوحيد المعمور بالناس.

- **العُمران المادي**

والعمران المادي للأرض هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تراكم الخبرة والتجربة، مع مرور الوقت، وتطور معرفة الإنسان واكتشافه للسنن والقوانين التي تحكم الأشياء والظواهر، وملاحظة اضطرادها، واستشراف وقوع الأحداث والظواهر وتوقعها، ومن ثمَّ استغلال ما تُتيحُه من فُرَص، وتجنُّب ما تُمثِّله من تحدِّيات، وبذلك تزدهر العلوم وتتطوَّر تطبيقاتها، ويتحقَّق للإنسان بذلك التمكين في الأرض وتسخيرها، فيشيد فيها المباني والقصور، ويشق الطرق ويقيم الجسور، ويبني المصانع، وينتج البضائع، ويطور وسائل الانتقال: سيارات وقطارات على البر، وسفن في البحر، وطائرات في الجو،... وغير ذلك مما يكون فيه مظاهر العمران، وتمتلئ به أنماط الحضارة التقليدية، إضافة إلى ما وصلت إليه الحضارة الرقمية الافتراضية من اختراعات حديثة، تجعل الناس يلتقون ويتحدثون ويتبادلون العلوم والفنون والمنتجات، دون أن يغادر أحدهم فراش نومه!

ويكون إعمار الأرض باستصلاحها بالفلاحة والزراعة، وتنمية سبل الرزق حتى لا تبقى في الأرض مساحات معطلة من الإنتاج، ولا تبقى بين الناس أيدٍ معطلةٌ عن العمل، ويكون إعمار الأرض بالبناء عليها، وتيسير سبل السعي فيها من طرق وأساليب في الانتقال والتواصل بين ساكنيها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا ﴾ [الروم: 9]

ويكون إعمار الأرض إعماراً لبرِّها وبحرها، وقد جمع الله سبحانه وتعالى البر والبحر في حالة الفساد الذي أحدثه الناس في الأرض: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: 41] ولتجنب هذا الفساد، لا بد من إعمار البحر، مثل إعمار البر، وما تقوم به بعض المجتمعات من دفن الفضلات النووية والمشعة في البر والبحر إنما هو إفساد للبر والبحر وما تنفثه المصانع والآلات من الملوثات إنما هو إفساد للجو أيضاً إضافة إلى إفساد البر والبحر.

- **العُمران الفكري والثقافي**

وهو الجانب المعنوي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تطور خبرة الجماعات والشعوب فيما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الاجتماعية والمعيشة الاقتصادية، وسنّ القوانين والأنظمة التي تدير العلاقات بين الناس المقيمين في المكان، فتنشأ الثقافات، وتتكرَّس الأعراف والعادات، ويتقبَّل الناس الخضوع لسلطة الإدارة والحكم لتحقيق الأمن والاستقرار. ولعلّ القدرات التي زود الله بها الإنسان على سائر المخلوقات حتى الملائكة، حين علمه الأسماء كلها، كانت جزءاً من عملية التمكين في الأرض، حتى يتمكن من أداء مهمة العمران، في هذا الجانب المعنوي والثقافي من الحضارة البشرية.

وإذا كان الله سبحانه قد أثنى على من يَعْمُر مساجد الله، فإنه في المقابل قد ذمَّ من يسعى في خرابها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: 114] وقد أرسى الله سبحانه في حياة الناس سنناً تحقق حكمة الخلق والتنوع والاختلاف، منها سنّة التدافع بين فئات الناس، وهي السنة التي تحفظ بيوت الله التي بنيت لذكره وعبادته من أن تُهدمَ كلما بنيت: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40] فَدَفْعُ الله المؤمنين من عباده لمواجهة أعدائهم، هو الذي يبقي المنشآت التي أقامها الناس لعبادة الله، قائمة يعمرها الناس بالعبادة والذِّكر فلا تهدم أو يتوقف عمرانها.

ومن هذه السنن أن يجتمع الناس على أنظمة وقوانين تنظم شؤونهم فيقبلون بحاكم يحكمهم، ويلجأ الحاكم إلى مشورة أهل الرأي ممن ينتخبه الناس، فينزل على رأيهم، وينشأ بين الناس من أهل الحكم والقضاء من يفصل في منازعات الناس ويضبط حقوقهم.

ومن هذه السنن اختلاف الناس في كسبهم من العلم والمعرفة، فيلجأ قليل العلم إلى سؤال الأكثر علماً، فتنشأ المدارس والجامعات، ومعاهد التدريب والدراسات، ومراكز البحث وحل المشكلات. كل ذلك وأمثاله من مظاهر التطور

والرقي العمراني في الفكر والثقافة والتنظيم والإدارة، فالناس بها يتفاخرون، وعليها يتنافسون، وعلى أساس كسبهم فيها يُصنفون.

ومن السنن المستقرة والقوانين الثابتة التي تسير وَفْقها حياة الناس في الأرض أنَّ عمرانَ البلاد وخرابَها، وطيبَ الحياة وبؤسَها، إنَّما هو نتيجة لأعمال الناس وممارساتهم، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم أنباءً عن أمم بلغت من العمران المادي والمعنوي شأواً بعيداً، لكنها لم تشكر نعمة الله، فركنت إلى الظلم؛ ظلم النفس وظلم الآخرين، فقضت سنة الله بهلاك أهلها بسبب ظلمهم، فأصبحت البلادُ خاويةً على عروشها، ومظاهرُ الحضارة والعمران مادةً لا روح فيها؛ فالقصور المشيدة لا تزال قائمة، لكنها خلت من ساكنيها الظالمين، ولم تغن عنهم قصورهم أو عمرانهم شيئاً. أمَّا مظاهر الحضارة والعمران، والماءُ روحها، فلا تزال صالحة للاستعمال، لكنها أصبحت معطلة لا تجد من الناس من يوظفها، ويستفيد منها، وبقيت شاهدة على ما وصل إليها أهلها من عمران لم يحفظوه ونعمةلم يشكروها: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: 45]

الهلاك هنا لم يكن خراباً للمباني والقصور، نتيجة زلزال مدمر مثلاً، ولم يكن نتيجة تعطل أسباب الحياة الأساسية، مثل عدم توفر مصادر المياه: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30] لكن الهلاك أصاب الناس مع بقاء العمران المادي قائماً، وبقاء أسباب الحياة وافرة. ولعلَّ في هذه الحقيقة تفسيراً لما تعاني منه بعض مجتمعاتنا العربية والإسلامية، التي يتوفر فيها الكثير من مظاهر العمران المادي وأسباب الرغد في الحياة المادية، لكنَّ النَّاس ركنوا إلى حياة الكسل، والاستهلاك، والاعتماد على الآخرين، لتأمين أسباب الحياة، فليس لهم قوة تردع عدوهم، ولا إنتاج يغنيهم عن غيرهم، ولا سياسات عادلة في الحكم توفر لهم الاستقرار والأمن، وتبني روح الانتماء إلى المجتمع والحرص على مقوماته، ولا نظم عادلة في الاقتصاد، توفر للناس فرص العمل، وتستهدف الإنفاق في الأولويات والضروريات من الإنتاج الزراعي والصناعي.

مثل هذا الواقع جعل الحياة عند أكثر الناس في حالة من "الهلاك"، و"الخواء". وبدلاً من أن تمتلئ حياتهم بالعمل الصالح، والجهد المصلح، والعطاء المتصل، والأمل المتسع، والإسهام المبدع، فيكون لهم بذلك موقع الريادة في الحضارة المعاصرة، أو على الأقل المشاركة الفعالة والإسهام المتميّز فيها، امتلأت حياتهم بالتشكي والتحاسد والتلاعن والتطاعن؛ الأمر الذي أوصلهم إلى اليأس من إمكانية الإصلاح؛ فهم هلكى وموتى وهياكل حياة لا روح فيها.

ب. العُمران والحياة

ارتبط معنى الإبقاء على الحياة في لغة القرآن الكريم بعملية الإحياء، ذلك أنَّه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32] فالإعلاء من قيمة الحياة وإقرار قُدسيتها والمحافظة عليها: هو إعمار للأرض، (عمران الأرض) ؛ وقتل الحياة إفساد فيها. وربّما أخذ "الراغب" معنى العُمُر من "عمران الحياة" أو عمران بدن الإنسان بالحياة،[14] وكما أن الاستعمار هو طلب الإعمار، وفعْلُ الإعمار والتعمير هو الصورة التي تتحقق بها الخلافة في الأرض، كلِّ الأرض، ما دامت الحياة على الأرض: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] فإنَّ الوجه النقيض لفعل العمران وتحقيق الخلافة في الأرض، هو السعي فيها فساداً. وأشدُّ صور الفساد والإفساد هو قتل النفس وإنهاء حياتها.

إن قيام الفرد الإنساني بأمانة الخلافة في الأرض ومهمة العمران فيها، هي وظيفة تُعَمَّر بها حياةُ الفرد حتى انتهاء عمره بالموت، وتمتدُّ لتعَمِّر حياةَ غيره بعد موته، بالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح: "إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له،"[15] فضلاً عن عمران حياته الأبدية في الآخرة. وهي كذلك وظيفة ممتدة للنوع

(14) الأصفهاني، الراغب. **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م، مادة عَمَر.

(15) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، بيروت: دار ابن حزم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته، ط1، 1995م، حديث رقم1631، ص1016.

الإنساني، من جيل إلى آخر ومن أمَّة إلى أخرى، طوال عهد النوع الإنساني على هذه الأرض. وإذا اختل هذا العمران وتعطل بالفساد، تحوّلت معيشة الإنسان في الدنيا إلى ضلال وضنك: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 124] فالعُمرانُ حياةٌ وفق هداية الله، وهي خير وبركة في الدنيا والآخرة، والفساد معيشته ضيق وضنك في الدنيا والآخرة.

فقيام الإنسان بوظيفة الإعمار في الأرض استجابة لدعوة الله سبحانه لما فيه حياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 24]، ورفض الاستجابة لله والرسول والتولّي عنهما هو سعي في الأرض بالفساد والإهلاك: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: 205] وأينما فرد يتولّى عن دعوة الله لإقامة الحياة، ويسعى في الأرض فساداً، ويهلك الحرث والنسل، فإنَّ نتيجة ظلمه وإفساده لا تقع عليه خاصة، وإنما تمتد لتكون النتيجة عامة للحرث والنسل، إذا لم تأخذ الجماعة على يديه فتمنعه من إيقاع الظلم والإفساد. وأيّما أمّة من الأمم تتولى عن دعوة الله لإقامة الحياة وإعمار الأرض وابتغاء الرشد، وتسعى في إيقاع الظلم والإفساد، بسفك الدماء في الحروب الظالمة، وتعطيل مصالح الناس في كسب الرزق من جنبات الأرض زراعة واستصلاحاً، والإسراف في استخدام طاقات الأرض بغير رشد، وملئها بالسموم والملوثات، فإن نتيجة ذلك ستكون إهلاكاً للحرث والنسل في الأرض كلها، وفتنة تصيب جميع الأمم، إنْ لم تقمْ أمم الأرض بالأخذ على يد الأمة الظالمة والمفسدة. فهذه الأرض التي استخلف اللهُ الإنسانَ فيها هي سفينة، إنْ غرقت غرق كلُّ من فيها من الصالحين والفاسدين على حدٍ سواء، أمَّا حسابهم فهو شأن الله سبحانه يتولاه بعِلْمِه ورحمته وعدله.

الحياة الطيبة في الدنيا تتحقق إذن من سعادة النفس، وصلاح البال، وعموم الخير، واجتماع الناس على الألفة والمودة، وشيوع الأمن، وتحقق التعارف والتعاون، وتوفر أسباب الرغد... حين يعمُرُها العمل الصالح؛ صلاحاً وإصلاحاً: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] وتصبحُ حياةَ ضلال وضنك، عندما يتناوشها الفساد والإفساد. وينطبق ذلك في حالة الفرد وفي حالة الجماعة والأمة والبشرية كلها؛ أمَّا الحياة الطيبة في الآخرة فهي جزاءٌ أحسن، ونتيجةٌ أفضل، تترتَّب على عُمران الدنيا بالعمل الصالح، والجهد الإصلاحي.

وحياة الناس في الدنيا لا تتحقق إلا باجتماع الناس وتعاونهم على شؤونها، ذلك أنّ "الإنسان مدنيٌّ بالطبع" لا يعيش الفرد منهم وحيداً منفرداً، ولكنَّه يعيش في أُسْرَة، تنتظم حياتَها أحكامٌ وعلاقات وأنظمة ومسؤوليات، وتتجمَّعُ الأُسَر في جماعات وفي شعوب وقبائل وأمم، وتتوزَّعُ في مجتمعات ودول، وتنشأ بينهم علاقات تعارف وتعاون وتبادل للمنافع، مما يكون في حالة السلم، كما تنشأ بينهم عداوات وتنافسات وحروب. وتنشأ في حياة الناس أنماط معيشية مختلفة، من الطعام والشراب واللباس والمباني وأساليب الانتقال والاتصال؛ ويكون لكل فرد سيرته، من الغنى والفقر، والصحة والمرض، والعلم والجهل؛ ويكون لكل أمَّة تاريخُها، من بداوة وحضارة، وتخلُّف وتقدم، وعلوم وصنائع... وهكذا. ثم يأتي من يكتب السيرة والتاريخ، فيحتاج إلى الفهم السليم لطبيعة العمران البشري، وقوانين هذا العمران في أحواله وتحولاته، حتى يتمكن من توثيق الأحداث والوقائع وامتحان الروايات سنداً ومتناً، مهتدياً بما يعْلَمُه من حقائق الأشياء وطبائع الأمور.

ولم تكن حياة الناس على هذه الأرض عبثاً، فقد جاء خلق الإنسان لغاية محددة هي عبادة الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ولفهم معنى العبادة في سياق الغاية من خلق الإنسان جاءت الآيات الأخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] فالخلافة في الأرض هي معنى العبادة، والخلافة هي إعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. فالعمران هو شأن الإنسان في حياته الدنيا، في هذه الأرض، ليتولى فيها العمران وليقوم بحمل الأمانة. وإذا كانت كل المخلوقات -غير الإنسان- تعبد الله وتسبح له، وتخضع لسننه طائعة غير مختارة، فإنَّ الإنسان في حياته الدنيا يأتي بالعبادة اختياراً، مثلما يؤمن بالتوحيد اختياراً.

لقد جاء خلق الإنسان من الأرض، فكانت الأرض قبل الإنسان، ثم جاء الإنسان ليكون خليفة في الأرض، ولذلك فإنَّ الله سبحانه قد حمَّله أمانة الخلافة في الأرض، بعد أن مكَّنه فيها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: 10] وسخَّرها له: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: 20] ولذلك فهو مسؤول عن القيام بهذه الخلافة على وجهها. وتلك هي العبادة الحقة؛ فهي غاية الحق من الخلق.

ت. العُمران الخلدوني

نفرد هذا العنوان الفرعي هنا لتأكيد أنَّ ابن خلدون التقط مصطلح العُمران القرآني، وأنَّه أدرك قدراً كبيراً من "فقه العُمران"، وانتبه إلى كثير من دلالاته التي لم يدركها مَنْ سبقه، وربّما لم يَبْنِ عليها كثيرٌ ممن لحق به. كتب ابن خلدون (المتوفى عام 808هـ) كتاب التاريخ المعروف باسم: "كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وكتب مقدمته لهذا التاريخ، فعُرفت "المقدمة" أكثر مما عرف "كتاب العِبَر" ومع أنَّها مقدمة لكتاب في التاريخ، وهو عِلْم معروفٌ في عهده وفي عهود سابقة على عهده، فإنها تضمنت فصولاً متنوعة يجعلها الباحثون الآن من موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي نشأت في صورة علوم مستقلة، بعد ابن خلدون بكثير.

وقد أخذ ابن خلدون المفهوم القرآني للعُمران، وجعله عَلَماً على عِلْم جديد يدرس حياة الناس وما يطرأ على هذه الحياة من تحولات وتبدلات، وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمَّاه علمَ العُمران البشري، أو علم الاجتماع، أو حالة الحضارة. وقد أعلن ابن خلدون ولادة علم العمران، وتخطيط منهجيته، داعياً من يأتي بعد لاستكمال البحث في موضوعاته وقضاياه فهو يقول: "... عَزَمْنا أنْ نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه... ولعلَّ من يأتي بَعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغُوصُ من مسائله على أكثر ما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضوع العلم، وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه، والمتأخرون يُلحِقون

المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون."[16]

في مقدمة "المقدمة" ينتقل ابن خلدون من التاريخ -الذي هو خبر- إلى موضوع التاريخ وهو عمران العالَم وحالات هذا العالم: "اعلم أنَّه لما كانت حقيقة التاريخ أنَّه خبرٌ عن الاجتماع الإنساني الذي هو عِمران العالَم، وما يعرض لطبيعة ذلك العُمران من الأحوال، مثل التوحُّش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من المُلْك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."[17]

والهدف من هذا العلم هو تحويل غاية المؤرخ من سرد الأخبار، وتصيد الغرائب، إلى وضع قانون: "في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه." "وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنَّه ذو موضوع وهو العمران البشري، والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال."[18]

وربّما كان للظروف المتقلبة والمآسي المتكررة التي شهدها ابن خلدون في حياته أثر في رغبته في خلوة "في قلعة ابن سلامة" تمكّنه من التدبُّر والتفكُّر، وليكتب تجربته وخبرته في ما آلت إليه أحوال الأمة لذلك العهد، ويستنبط من ذلك بعض قوانين العمران البشري، في مسائل اجتماعية متعددة شملت النفس الإنسانية، وتاريخ الأمم والحضارات، والبيئة الجغرافية، وشؤون الملك والسياسة، ومسائل الاقتصاد والثروة، ومبادئ الاجتماع البشري، ومناهج التربية، وغير ذلك.

ويبدو أنَّ سنَّة الله في حياة المجتمعات البشرية تقتضي أنْ يرافق العمرانَ البشري ركونٌ إلى الدعة والانغماس في الترف، الأمر الذي يؤدي إلى خلل في أسباب القوة والتماسك، ومن ثم في ضعف الأمة المترفة وانهيار حضارتها

(16) ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ج3، ص1213.
(17) المرجع السابق، ص329.
(18) المرجع السابق، ص332.

لتخْلُفَها بعد ذلك أمَّةٌ أخرىٰ أكثر فتُوَّة وأشدّ عصبية وتماسكاً، فتأخذ دورتها فترة من الزمن، ثم تدُول دوْلتُها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]؛ وأنها مهما طالب فستبدأ حالة من الترف والاسترخاء توصلها إلىٰ مرحلة الضعف وبداية الانهيار.

وقد تميَّز ابن خلدون في فهمه للتاريخ والاجتماع البشري، وعلاقته بالكون الطبيعي وسنن الوجود، بمزايا واضحة تماماً، بالقياس إلىٰ غيره ممن عالج هذه الموضوعات. فالمجتمع الإنساني كان موضع تأمل ونظر من مفكرين آخرين قبل ابن خلدون مثل أفلاطون وأرسطو والفارابي وأوغسطين، لكن التصور النظري الفلسفي الذي طغىٰ علىٰ جهودهم، لم يقترب من الوقائع والطبائع الاجتماعية في حياة البشر، لأنَّ همَّهُم كان همّاً غائياً معيارياً يحدد ما يجب أن يكون عليه المجتمع. وفي المقابل فإن ابن خلدون قد اعتمد في دراسته للمجتمع علىٰ ما يحدث في المجتمع فعلاً، بحكم خبرته العملية في المجتمع، مع أنّه لم يغفل عما يجب أن يكون عليه المجتمع في الصورة الغائية المعيارية، ولكن ليس في إطار نظرة فلسفية مجردة، بل في إطار الهدي الإلهي، كما فهمه من القرآن الكريم. لذلك فإنّه جمع بين التقرير الوصفي والتحديد المعياري، وتحدَّث عن عالم الشهادة دون أن يغفل عالم الغيب، واعتمد العقل دون أن ينسىٰ النقل.

لكن الميزة الأكثر أهمية في فهم ابن خلدون للعمران البشري أنه لا سبيل إلىٰ فهم طبيعة العمران دون فهم قوانين الاجتماع الإنساني وطبائع هذا الاجتماع، لأن ما يحدث فعلاً إنما يكون وفق سنن تشبه سنن الكون الأخرىٰ، التي تجري في عالم الأشياء المادية، لذلك لا بد من دراسة الأحداث والوقائع الاجتماعية وفق منهج منظم، لا يتجاوز الوقائع والطبائع. "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميِّزَ ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضىٰ طبعه..."[19] ولذلك فإنَّ ابن خلدون لَما حدَّد موضوع علم العمران ومسائله، ختم هذا التحديد قائلاً: "وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً."[20]

(19) المرجع السابق، ص332.
(20) المرجع السابق، ص332.

ولعلَّ هذه دعوة تتوجه إلى دعاة الإصلاح والتغيير في مجتمعات المسلمين اليوم بضرورة دراسة قوانين التغيير في العقول والنفوس، وفي الواقع الاجتماعي، ومن ثَم يتمُّ التخطيط لجهود الإصلاح، ووضع برامجها ونشاطاتها بناءً على علم ومعرفة بتلك القوانين. فتغيير الواقع لا يتحقق بتجارب شخصية محدودة، أو بخبرات بادي الرأي ممن تدفع بهم الظروف إلى مقدمة الصفوف، أو برفع شعارات دون برامج علمية وعملية، مهما كانت هذه الشعارات صحيحة في ذاتها ودلالاتها. كذلك فإنَّ تغيير الواقع لا يتحقق بتمنيات المخلصين في قلوبهم مهما ارْتَجَّت هذه القلوب، ولا بدعوات المؤمنين في صلواتهم، مهما ارتفعت أصواتهم بالدعاء! إنما يكون التغيير بالسعي البشري، والجهد المتواصل، وفق منهجية تتكامل فيها المعرفة بالسنن الكونية وعالم الأسباب واستيعاب حقائق الواقع العملي ومتطلباته، وإعمال المبادئ والقيم التي ترشِّد سعي الإنسان وتزكيه.

ثم إنَّ ابن خلدون وهو يستنبط علم العمران، لا يفعل ذلك اتباعاً لمن سبقه من أهل العلم أو سيراً على خطاهم، سواءً كانوا من علماء المسلمين أو علماء الأمم الأخرى، وإنَّما يفعل ذلك عن وعي بما أنجزه العلماء قبله في جهودهم لفهم العمران البشري، وأنَّ ما أنجزوه لم يكن كافياً لصياغة القوانين التي بموجبها نفهم آليات التغيير والتحول والتطور في حياة البشر؛ الأمر الذي تطلب منه بذل الجهد والتفرغ "في قلعة ابن سلامة" أربعة أعوام من عمره قضاها في التدبر والتفكر والقراءة والكتابة، حتى أنجز "كتاب العبر" وكتب "المقدمة"، التي تضمنت علم العمران، فكان إنجازه فيه إبداعاً: "مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدّى إليه الغوص... وكأنَّه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة... ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً، وأعْثَرَنا على عِلْم جَعَلَنا سِنَّ بَكْرِه وجُهَيْنة خَبَره..."[21]

فالمسألة لا تقف عند دراسة ما عُرِف من قوانين التغيير، وإنما تتجاوز ذلك إلى إعمال العقل في تمحيص المعروف منها، واختباره، ومعرفة علاقته

(21) المرجع السابق، ص333-335.

بموضوعات البحث ونطاقها في الزمان والمكان. وهو جهد يحتاج إلى مثل عبقرية ابن خلدون في زمانه، وقد يحتاج إلى تآزر العديد من الباحثين، يعملون منفردين، ويعملون معاً في فرق بحثية، فتتصل جهودهم، وتتكامل خبراتهم، لعلّ الله يلهمهم ما ينتفع به الناس، من تصحيح لمواقفهم، وحل لمشكلاتهم.

وهكذا فإنَّ العمران في المصطلح القرآني هو مفهوم كلي تتكامل فيه عناصر العمران؛ عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة ومقوماتها بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية، وعمران قلب الإنسان بتقوى الله ورجاء رحمته وغفرانه. ويتعزز معنى العمران بمعرفة ما يقابله، فهو حياة مقابل الموت، وصلاح وبناء مقابل الخراب والدمار والهلاك، كما يتعزز معنى العمران بمعرفة الأصل الذي يتفرع عنه، فالإيمان -عقلاً وقلباً، وإقامة الحياة على أساس الهدى عملاً وتطبيقاً- هو الأصل، والعمران بالنعيم الدنيوي والأخروي نتيجة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 65- 66] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

وتأكيد القرآن الكريم على العمران بوصفه نتيجة ومنفعة مادية ربما يكون مدخلاً لبعض النفوس التي تطمع في هذه النتيجة. فإذا كان النظر العقلي والتحليل المنطقي مَدْخلَيْن لإيمان بعض المؤمنين، فإنَّ الوعْد ببركات السماء والأرض، وبكثرة مصادر الرزق ويُسْرها ربَّما يكون مغرياً لنفوس أخرى كي تدخل في حظيرة الإيمان، فإذا دخلت جاء الاطمئنان واليقين نتيجة أخرى لحلاوة الإيمان في النفوس. وإنَّنا لنجد القرآن الكريم ينوِّع في خطابه إلى الناس رحمة ورأفة بهم، وأملاً بأن ينتفع الجميع؛ ذلك أنَّ بين الناس فروقاً تستدعي هذا التنوع في الخطاب،[22] فينتفع بعضهم بخطاب العقل المجرد، وينتفع بعضهم بخطاب

(22) النجار، عبد المجيد. "العمران والإيمان"، **مجلة إسلامية المعرفة**، س2، ع8، أبريل 1997م، ص40-84.

الوجدان والمشاعر، وينتفع بعضهم بخطاب الحواس المادية والمنافع العملية، وبذلك تتكامل منهجية الخطاب القرآني إلى البشر جميعاً.

خاتمة

كان موضوع هذا الفصل المبادئ والقيم المنهجية. وقد لاحظنا التداخل والتبادل الدلالي للمبادئ والقيم، وقد رأينا أن مبادئ المنهجية هي المنطلقات التي تبدأ منها المنهجية الإسلامية حركتها في التفكير والبحث والسلوك، وتحتكم إليها في استقامتها للوصول إلى غاياتها، وتتصف بها وتتمثلها في تعبيراتها وصياغاتها. واجتهدنا أن يكون واحداً من هذه المبادئ اعتماد منظومة القيم العليا الحاكمة، التوحيد والتزكية والعمران، مبدأ كلياً وحاكماً لمنهجية التكامل المعرفي. فهذه المنظومة تتّصف بالتكامل والشمول، وإمكانية اشتقاق الكثير من المبادئ الفرعية من كل قيمة من هذه القيم.

فتوحيد الله الخالق سبحانه، وتزكية حياة الإنسان وتطهيرها وترقيتها على مستوى الأفراد والجماعات والأمة، والعمران البشري للحياة وتطوير أساليبها وأسبابها كل ذلك يشكل منظومة قيمية، تحتاج أمتنا إلى اعتمادها مبدأ في منهجيتها في الفكر والعلم والسلوك، ومصدراً لسائر الضوابط والمعايير الحاكمة لهذه المنهجية المرشدة لتطبيقاتها. لكننا نؤكد الحاجة إلى النظر المنهجي في هذه المنظومة القيمية واستكمال تأصيلها ودعمها بمزيد من الدراسات والبحوث، التي تعمق فهمنا لها، وتشغيلها في استنباط منظومات القيم الفرعية، ونقلها من مجال الدعوة والموعظة ومجال علوم الشريعة، إلى مجال التأسيس للعلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية، وتطبيقات هذه العلوم في تطوير مجتمعات المسلمين، لتكون هذه المجتمعات منارات هداية لغيرها من مجتمعات العالَم.